القرن الثامن

8

1 – ابـــــن منظـــــور

2 – ابـــن قـــيم الجوزيـــة

3 – ابـــن هـــشام الأنـــصاري

4 – ابـــــن بطوطـــــة

5 – الـــشـــــــــاطـــبـــي

6 – الذهـــــــــــــبي

7 – أبـــو القاســـم الطهطـاوي

8 – التفتـــــــــــازاني

9 – البلقـــــــــــيني

10 – ابـــــن خلـــــدون

هذا القـرن

نحن الآن وجها لوجه مع سنوات القرن الثامن الهجري ، وهو عصر يمتد مـن عام 1301 إلى 1397 الميلادي ، كما أنه عصر كانت فيه الدولة الإسلامية قـد تمزقـت إلى دويلات ، وكان التتار على الرغم من هزيمتهم في عين جالوت هزيمة منكرة على أيدي «قطز» والمماليك ، إلا أنهم مازالوا يغيرون على الـشام وسـوريا ، والـصليبيون مازالوا يطمعون في أرض المسلمين ، والولاة والحكام يرتشون ويبطشون ، والعلـماء ينافقون في أرض المـسلمين طمعـا في الجـاه والـسلطان... **باختـصار**.. هـو عـصر استشرى فيه الفساد وعـم ، فـدور اللهـو والحانـات أصـبحت أكثـر مـن المـدارس والمساجد ، والمـشعوذون والمنتـسبون كـذبا إلى الـصوفية يبهـرون العامـة ويـؤثرون عليهم، والأمراء وكلهم من المماليك المجلوبين، هؤلاء الذين لهم قانون سري خاص توارثوه عن «جنكيزخان» ، والشيعة يعتصمون بالجبال في انتظار إمـامهم الغائـب ، والعامة يلتمسون العدل والبركة من الأضرحة ويكتبون إلى مـن في القبـور مظـالمهم وشكواهم من الحكام والمسـئولين ، والحياة العقلية مزدحمة بكـل مـا لا يرضـاه عـالم ولا فقيه ولا حتى إنسان عاقل ... فنفوذ أدعياء الـصوفية والـشيعة أصـبح هـائلا ، ودارسو الفلسفة يستدلون على وجـود الله بأدلـة الفلـسفة اليونانيـة ... فيـا لـه مـن عصر!! ، ويا لها من مهمة التي يقوم بها المجددون !!

كذلك كانت حالة المسلمين في أقطار المغرب والأندلس،أسوأ حالا منها في بلاد المشرق ، ففي المغرب كانت الدولة من الضعف ؛ بحيث لا تقدر على مهاجمة أعدائها

من ملوك إسبانيا والبرتغال ، وإنما كانت تدفعهم عما بقي للمسلمين في الأندلس ، فتتمكن حينا من دفعهم ، وتعجز حينا آخر عن ردهم ، وكانت دولة بني الأحمر بغرناطة هي البقية الباقية للمسلمين في الأندلس ، ولكنها لم تكن تستطيع وحدها الدفاع عن البلاد ، بل كانت تستعين بدولة بني مرين بمراكش ، حتى ضعفت هذه الدولة بفعل الصراعات والانقسامات ؛ فأصبحت عاجزة عن مناصرة شقيقاتها من بلدان المغرب العربي .

لقد بلغ ضعف المسلمين في هذه الفترة حدا وصل إلى أنهم كانوا يستعينون بالفرنجة بين جندهم . ظنا منهم أن هؤلاء الفرنجة أعرف بشئون وفنون الحرب أكثر من غيرهم ، وأقوى وأشد في تحمل الشدائد والنزال .

ولم تكن الحالة العلمية بأفضل من هذه الحالة السياسية لدى المسلمين . وكما قلنا ازدادوا بعدا عن العلوم الفلسفية التي من شأنها النهوض بهم ، والجامدين من رجال الدين . والطامة الكبرى أن ملوك المسلمين وأمراءهم ، بل ورجال الدين كانوا يخضعون لهؤلاء الجهلة والمدعين من المتصوفة ، ويبالغون في تقديرهم واحترامهم وتعظيمهم ونفاقهم . وطبيعي والأمر كذلك أن يزداد النفور من العلوم العقلية ، وأعني بها العلوم الفلسفية ، وطبيعي أيضا أن تضعف همم العلماء ، وتفتر عزائمهم التى كانت تحملهم على الابتكار في العلم ، أو تغريهم على الوصول إلى حقائق الأشياء ، بل وظهر فيهم الميل الشديد إلى الاقتصار على معارف السابقين من العلماء في القرون الماضية .

ولا تقل الحالة الدينية والأخرى الاجتماعية سوءا عن الحالتين : السياسية والعلمية ، فالحالة الدينية استمرت على جمودها عند الفكر الأشعري ، والحالة الاجتماعية ساءت بسبب أن الملوك الجهلة من المماليك والأتراك المسيطرين على بعض بلاد المسلمين - خاصة العربية - كانوا لا يشعرون بشعور رعيتهم ولا تهمهم أحوالهم أو معيشتهم بأي حال من الأحوال .

كذلك نجد أوروبا هي الأخرى ينتابها الضعف ، خاصة وأن دولة الروم بدأت تأخذ طريقها إلى النهاية والزوال ، وبدأت دولها تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ لأن تركيا لم يبق من دولها وممالكها الواسعة سوى مدينة القسطنطينية ، وكذلك كانت روسيا في قبضة التتار ، وضعفت فرنسا ؛ فطمعت فيها إنجلترا التي استولت عليها بعد حرب طويلة .

وكما يقرر المؤرخون أن الإنجليز ازدادوا قوة ومنعة ، خاصة وأنهم استطاعوا أن يحلوا بعض المشاكل المتصلة بالصراعات الدينية ، وأن يظهر من بينهم العلماء الذين يعلنون بعد ذلك الثورة الصناعية .

ولذلك كله .. يمكن تبين أن المجددين في هذا القرن من المسلمين هم الذين يستطيعون أن ينفضوا عن أنفسهم غبار التقليد في العلم والدين ، ويدركوا مدى ما وصلت إليه الحركة العلمية في العالم ، ويعرفوا خطورة الاتجاه إلى الحفظ والاختصار والمتون ومتن المتون ، ولاسيما في العلوم الفلسفية أو خلط العلوم بعضها ببعض كما كان سائدا في هذا القرن ... خلط الفلسفة بعلم الكلام .

وعلى الرغم من سوء هذه الحالة التي كانت تمر بالمسلمين ، فقد برز من بينهم أفذاذ : الواحد منهم يماثل عصرا بأكمله ، وأخص بذلك «ابن خلدون» الذي سبق بالفعل عصره وبقية العصور التالية ؛ حيث استحدث نظريات في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد ، وكان سابقا ومعلما لعلماء أوروبا قرونا عدة . كذلك هناك أيضا «ابن بطوطة» هذا الرحالة المغربي الذي سبق غيره من الرحالة الأوروبيين، واكتشف بقاعا جديدة في العالم، وهناك أيضا علماء وفقهاء يمثلهم «عمر سراج الدين البلقيني» و«ابن هشام الأنصاري» ، و«أبو إسحق الشاطبي»... وهو ما تتعرض له الصفحات التالية بالإشارة إلى كل منهم في إطار حركة التجديد في التفكير الإسلامي .

ابن منظـــور

ابن منظور من مجددي القرن الثامن الهجري ، حيث ولد عام630هـ وتوفي عام 718هـ ، والمعـروف في التـاريخ الإسلامي باسـم : محمـد بن جـلال الـدين المكـرم ابن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن المكرم بن محمد بن منظور ابن رويفع الأنصاري ، من بني مالك .

اشتهر بنسبته إلى جده السابع : منظور ، إذ عنده يقف أكثر من ترجمـوا لـه ، ثـم يرفعونه بعد ذلك إلى رويفع جده الأعلى. لم يذكر هذه السلسلة متصلة غير ابن منظور نفسه نقلا عن جده الأدنى نجيب الدين فقال في قاموسه (لسان العرب) «جـرب» : «رويفع بن ثابت هذا هو جدنا الأعلى من الأنصار» «كما رأيته بخـط جـدي نجيـب الدين والد المكرم » ، ثم مضى يذكر النسب على النحو الذي مر بك .

وعلى حين لم يذكر حول هذا النص المكتوب بخط الجد خلاف ما حول الأسماء. ذكر السيوطي في كتابه (البغية) شيئا من هذا الخلاف ، ويكاد يكون هو الوحيـد مـن بين المترجمين المعتد بهم في هذا الصدد الـذي اسـتطرد في سرد نـسب صـاحب هـذه الترجمة إلى أن بلغ به جده منظورا ، فنجده ينقل «محمد بن المكـرم بـن عـلى – وقيـل رضوان» كما نجده لا يذكر ابن «حبقة» و«منظور» محمدا ، وقد تكون هـذه الأخـيرة على سبيل الاختصار ، ولكن الأولى تلفت النظر لانفراد السيوطى بهـا ولخلـو نـص الجد منها ، ورويفع هذا الذي ينتـسب إليـه ابـن منظـور نـزل مـصر وولاه معاويـة طرابلس ؛ أمره عليها سنة 46 هـ ، وفي سنة 47 هـ خرج رويفـع فغـزا إفريقيـة ، ثـم عاد من سنته .

ويذكر ياقوت في كتابه (معجم البلدان) في رسم (جربة) نقلا عن «حنش الصنعاني» يقول : «غزونا مع «رويفع بن ثابت» قرية بالمغرب يقال لها : جربة ، فقام فينا خطيبا فقال : « أيها الناس ، لا أقول لكم إلا ما سمعته من رسول الله - ﷺ- يقوله لنا يوم خيبر ، فإنه قام فينا خطيبا ، فقال : «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ما زرعه غيره** » . يعني إتيان النساء الحبالى .

ويقول «ابن عبد البر» في كتابه (الاستيعاب) إنه - أعني : رويفعا - مات ببرقة، وكان يليها من قبل مسلمة بن مخلد .

ويزيد ابن منظور فيما نقله عن جده ، «وقبره بها » كما يزيد رواية أخرى عن مكان موته فيقول : « وإنه مات بالشام فيما يقال ».

ومحمد هذا ، صاحب هذه الترجمة ، يكنى : أبا الفضل ، ويلقب «جمال الدين» وقد أجمع المترجمون له على أن مولده كان سنة 630 هـ .

وقال ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات) «في أولها»، أي أول سنة 630هـ .

وقال السيوطي في كتابه (البغية) وابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة) : «في المحرم» . وقال الصفدي في كتابه (أعيان العصر) : ومولده في أول سنة ثلاثين وستمائة، ثم زاد فقال نقلا عن شيخه «أسير الدين» قال : ولد المذكور يوم الاثنين الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة . وقد اقتصر الصفدي على هذه الرواية الأخيرة في كتابه (نكت الهميان) وهذا ما ذكره أيضا ابن تغري بردي في كتابه (المنهل الصافي).

ولم يعرض لمكان مولد ابن منظور غير «الزركلي في الأعلام» حيث قال : «ولد بمصر وقيل بطرابلس الغرب » وما نراه نقل ما نقل عن مرجع بل نراه قد اجتهد في الاستنباط ، فالمراجع لم تذكر شيئا صريحا عن البلد الذي ولد فيه ابن منظور.

غير أن المعتمد من هذه المراجع – أعني : «أعيان العصر» و «النكت» و«الفوات» و«الدرر» و «المنهل الصافي» و «البغية» – تقول : «إنه خدم بديوان الإنشاء بمصر وولي قضاء طرابلس الغرب . ولعل هذه العبارة هي التي أوحت بهذا الاستنباط يرى فيها كل رأيه .

ولكنا إذا قرأنا لابن منظور مقدمة كتابه (نثار الأزهار) الذي اختصر فيه كتاب (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) لشرف الدين أحمد ابن يوسف التيفاشي ، نجده يقول: «وكنت في أيام الوالد – رحمه الله – أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه ، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي العبسي في جملتهم ، وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه ، ولا أشاركهم فيما يلقونه ، غير أني كنت أسمعه يذكر للوالد كتابا صنفه أفنى فيه عمره، واستغرق دهره ، وأنه سماه (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) وأنه لم يجتمع ما جمعه فيه كتاب ... وكنت شديد الشوق إلى الوقوف عليه . وتوفي الوالد – رحمه الله – سنة خمس وأربعين وستمائة ، وشغلت عن الكتاب ، وتوفي شرف الدين التيفاشي بعده بمدة . فلقد كانت وفاة التيفاشي سنة 651 هـ » .

إن ابن منظور في هذا الذي أورده يشير إلى مركز أبيه في مصر ، ويشير إلى مدة استقراره بها تلك المدة التي امتدت بعد أن ولي الإنشاء بمصر إلى أن مات .

وفي تلك المدة كان يختلف إليه التيفاشي وغيره ، ونحن نعرف أن ابن منظور ولد سنة 630 هـ ، وعرفنا من تصريحه هذا الذي مر أن أباه مات سنة 645 هـ ، ومن هنا نفيد أن عمر منظور كان يوم أن مات أبوه نحوا من خمسة عشر عاما . من هنا نستطيع أن نجد ما يفيد – دون قطع – أن ميلاد ابن منظور كان بمصر .

والذين يقولون إن مولده كان بطرابلس ، يذكرون اختلاف أبيه إليها لولاية قضائها ، ولا يجدون ما يدفع أن يكون ميلاد منظور سبق مجيء الأب إلى مصر ، فالأمر

كما يحتمل الأولى يحتمل الثانية . ولكنا إلى الأولى نميل لهذا الذي ذكره ابن منظور عن طفولته .

وليس عندنا بعد هذا الكثير عن تنشئة ابن منظور ، ولكنا نكاد نلمح شيئا في تلك الكلمة التي قدم بها لكتابه (نثار الأزهار) . فلقد عرفنا بطفولته وأنها كانت طفولة مشغولة بالعلم والتحصيل ، وعلى ما كان عليه الأب وكان عليه الجد نشأ ابن منظور ، حيث جذبته هذه الحركة العلمية التي صخب بها بيته منذ أن نشأ . ولقد كان في هذا البيت قبل ابن منظور جده الأول نجيب الدين والد المكرم ، وقد ذكر لنا ابن منظور نقله عما يتصل بسلسلة نسب هذا البيت ، وحدثتك أنا حديث الأب أو بعضه وحسبه أنه كان يلقب بـ : جلال الدين .

وبعد هذا الذي ذكره ابن منظور عن تطلعه إلى التحصيل يذكر لنا الذين حدثونا عنه شيوخا له سمع منهم لا يكادون يختلفون فيهم ، هم : « ابن المقبر ومرتضى ابن حاتم، وعبد الرحمن بن الطفيل ، ويوسف بن المخيلي » ، والغريب أن ابن منظور لم يعرض لواحد منهم بتعريف أو إشارة ، وهو يستطرد في ثنايا المواد اللغوية . كما أنه لم يفسح لهم مكانا في مقدمته التي قدم بها «اللسان» ، والتي كانت تتسع لهذا دون غيرها من مقدمات أخرى كثيرة قدم بها كتبا اختصرها .

وابن منظور الذي أهمل شيوخه لم يهمله تلاميذه ، فالمؤرخون لابن منظور يذكرون من بينهم «السبكي والذهبي» .

يقول الصفدي في (أعيان العصر) و (النكت) : وكتب عنه شيخنا شمس الدين الذهبي ، ويزيد السيوطي واحدا آخر فيقول في (البغية) : وروى عنه السبكي والذهبي . وما من شك في أن الذهبي أفرد لشيخه ابن منظور مكانا في تاريخه ، أشار إلى ذلك الصفدي في «أعيان العصر» «والسيوطي» في (البغية) ، وتكاد تكون المراجع جميعها تقول عن الذهبي ، على الرغم من إهمال بعضها الإشارة إلى ذلك . ونقرأ في

هذا الذي خص به الذهبي أستاذه الإنصاف له حين يقول عنه : تفرد في العوالي وكان عارفا بالنحو واللغة والكتابة .

وبعد هذين التلميذين نجد ذكرا لثالث ، هو «قطب الدين» ، ولد ابن منظور هذا، وكان قطب الدين كاتب الإنشاء بمصر . وذكروا له أنه روى عن أبيه شيئا .

والغريب أن «ابن تغري بردي» لم يشر إلى ابن منظور في كتابه (النجوم الزاهرة) عند ذكر وفيات سنة 711 هـ ، على حين أفرد له ترجمة في كتابه (المنهل الصافي) ، وكان كل ما كتبه عنه المقريزي في «السلوك» : «... ومات جمال الدين أبو الفضل محمد بن الشيخ جلال الدين المكرم بن على في الثالث عشر من المحرم عن بضع وثمانين سنة ودفن بالقرافة ، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية ورؤساء القاهرة وأوائل كتاب الإنشاء ، ومن رواة الحديث » .

وقد دخل علينا المقريزي بهذا القليل الذي رواه عن ابن منظور بجديدين :

أولهما : أنه جعل وفاته في المحرم وفي ثالث عشرة ، على حين جعلها من ترجموا لابن منظور جميعا في شعبان .

وثاني الجديدين : أنه كان شافعيا ، وكان هذا يعني أن يترجم له تاج الدين السبكي في طبقاته ، وابن منظور أستاذ والده ، ولكنا لم نجد لابن منظور ذكرا في طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي .

وما نظن أنه كان للمقريزي مرجع نقل عنه غير الذهبي ثم الصفدي من بعده ، لكنا نراه يذكر ما لم يذكراه وما لم يذكره معاصر له وهو «ابن حجر» .

وتكاد مؤلفات ابن منظور تملي علينا نهجه وتحدد غرضه . يقول الصفدي في «أعيان العصر» : « واختصر كتبا وكان كثير النسخ ذا خط حسن ، وله أدب ونظم ونثر» . ويقول آخر : «وكان فاضلا وعنده تشيع بلا رفض ، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة وأتى بما يخجل النجوم الزاهرة ، وله شعر غامض على معانيه وأبهج به نفس

من يعـانيه . وكان قـادرا على الكتابة لا يمـل من مواصلتهـا ولا يولي عن مناضـلتها . لا أعرف في الأدب وغيره كتابا بطوله إلا وقـد اختـصره، وروق عنقـوده واعتـصره ، تفرد بهذه الخاصة البديعة ، وكانت همته بذلك في بدر الزمان وشيعة ».

ويقول ابن حجر : وكان مغرما باختصار كتب الأدب المطولة والتواريخ ، وكـان لا يمل من ذلك . وينقل الصفدي عن ولده – أي : ولد ابن منظور قطب الـدين – أن والده– أي ابن منظور– ترك بخطه خمسمائة مجلد في كثير من ألوان المعرفة، ولهذا ولغيره من أسباب اختاره عدد من المؤرخين واحدا من مجددي القرن الثامن الهجري .

* * *

ابن قيم الجـوزية

اتفق معظم العلماء والمؤرخين على أن «محمد بن قيم الجوزية » من مجددي القرن الثامن الهجري ، فقد ولد عام 691 هـ ، وتوفي عام 751 هـ .

ولعل اسمه المعروف به «ابن قيم الجوزية» راجع إلى أنـه كـان ابنـا للقـيم عـلى المدرسة الجوزية بدمشق في سـوريا ، وقـد كـان - كـما يـذكر الـدكتور «عـوض الله حجازي» كمصدر يرجع إليه الأستاذ/ «عبد الله بن سعد الرويشد» في كتابه : (قـادة الفكر الإسلامي) .

إن ابن القـيم مـن ألمـع تلاميـذ ابـن تيميـة ، ويعتـبر تفكـيره امتـدادا للحركـة الإصلاحية السلفية الواسعة التى أقام صرحهـا شـيخه ، فقـد كـان الـوارث لـذلك التراث العلمى الضخم الذي خلفه ابن تيمية ، فعمل على تنظيمـه وتبويبـه ونـشره ، ونصب نفسه مدافعا عن آرائه في حماس لا مزيـد عليـه ، وإن كـان يخالفـه أحيانـا في بعض النظريات والفتاوى .

وابن القيم هو : محمد بن أبي بكر الدمشقى الملقب بـشمـس الـدين ، والمكنـى بأبي عبد الله ، كان أبوه قـيما ومـديرا لـشؤون المدرسـة المعروفـة بالجوزيـة نـسبة إلى مؤسسها «محيى الدين بن الجوزي» ، ومن هنا اشتهر مجددنا باسم ابن قيم الجوزية أو ابن القيم . وكانت أسرته أسرة علم وفضل .

ولد ابن القيم بدمشق في 7 من شهر صفر 691 هـ ، ونشأ متأثرا ببيئته العلمية ، فاندفع منذ نعومة أظفاره إلى تحصيل العلم ، حيث وجد السبيل ممهدا أمامه ، فتثقف ثقافة عامة في جميع أنواع العلوم ، وشاملة في جميع نواحى التفكير في زمانه ، واتـصل بكبار العلماء ، فدرس علـيهم التفـسير والأصـول وعلـم الكـلام والفقـه والعربيـة

وغيرها من العلوم ، وقد قال تلميذه «عبد الرحمن بن رجب» صاحب كتاب (طبقات الحنابلة) في هذا الصدد : « تفنن ابن القيم في علوم الإسلام ، فكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين إليه فيه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط لا يلحق في ذلك، وبالعربية له فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام ... وغير ذلك » . وهو لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ ، بل أقبل على قراءة كل ما وقعت عليه يده من التصانيف رغم كثرتها ، إذ كان ولوعا بالمطالعة ، صبورا عليها ، صاحب رغبة صادقة في اقتناء الكتب ، وقد حدث بهذا ابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة) فقال : «كان مغرما بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصر حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا» . وهكذا وفر لنفسه وسائل دراسة العلوم حتى ألم بجميعها ، واطلع على كل ما بذله علماء الإسلام من محاولات التوفيق بين الدين والعقل وحل المشكلات الاعتقادية .

تتلمذ ابن القيم على المصلح الكبير ومحيى السنة : «أحمد تقى الدين بن تيمية» واتخذه مثلا أعلى ، فلازمه منذ سنة 712 هـ حين عاد من مصر إلى دمشق حتى وفاة أستاذه سنة 728 هـ . وأخذ عنه علما جما واقتبس منه اتجاهه الحر في البحث ، واتبع مذهبه ، ونهج منهجه في مقاومة الطوائف المنحرفة عن عقيدة السلف . وقد جرت عليه هذه الصحبة وهذا الاتحاد في الاتجاه عنتا ومحنا أصابه منها ما أصابه شيخه من أذى واعتقال .

كذلك تأثر ابن القيم بكثير من علماء عصره ، لكنه لم يتأثر بواحد منهم مثلما تأثر بشيخه ابن تيمية الذي كان يحله محل والده ، يوجهه ويرسم له المناهج القويمة ، ويسدي إليه النصائح الرشيدة . من ذلك ما ذكره ابن القيم معبرا عن تأثره هذا : «ما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعى بوصية شيخى عندما قال لي : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل الإسفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهره ولا تستقر فيه ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ».

تشبع ابن القيم بآراء أستاذه الجريئة ، واقتنع بمبادئه الإصلاحية السلفية ، وتألم مثله بما كان يشاهده في عصره من الضلال والشرك ، ومن انحلال اجتماعي وسياسي، وتناحر مذهبي وطائفي جعل المسلمين في حال تشتت وفوضى ، فانطلق يؤيده في كفاحه الإصلاحي في حياته ، ويواصل تحقيق أهدافه بعد مماته ، وكانت هناك وحدة في الاتجاه ، واتفاق في المقاصد والأغراض ، فدعا مثل أستاذه إلى التحرر الفكري ونبذ التقليد ، وبين أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه لكل من وجدت فيه الأهلية وتوافرت لديه أدواته ، كما دعا إلى الوحدة وجمع الكلمة بالرجوع إلى الكتاب والسنة وتحكيمهما في كل اختلاف واقع بين المذاهب ، وبذلك يقع اختيار ما هو الأحسن والأوفق .

اكتسب ابن القيم من شيخه ، قوة في الجدل ، وإقامة الحجة ، غير أنه كان هادئا صبورا في جداله ومعارضاته على خلاف ما عرفت من حدة وثورة في شيخه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن ابن تيمية كان زعيم هذه الحركة الإصلاحية وحامل لوائها ، فاشتد النزاع بينه وبين خصومه مما ألجأ كلا من الطرفين إلى أن يستغل ما يملك من جهد للإطاحة بالآخر ، فلما خلفه ابن القيم كان النزاع قد فترت حدته وخفت وطأته ؛ لأن فكرة الإصلاح وجدت سبيلها إلى الأنفس ، وحصلت على مناصرين عديدين ، فصارت تعتمد على الهدوء والاتزان .

وعن مذهب ابن القيم يسجل الأستاذ «الرويشد» راجعا إلى بعض المصادر الإسلامية المهمة ، فيذكر أن ابن القيم كان كأستاذه لم يتعصب لمذهب الحنابلة ، وإن كانت نزعته حنبلية ، فهو يتبع الحق ويسير معه حيث سارت ركائبه ، ومن شواهد هذا أنه بعد ما تعرض لآراء الفقهاء في توزيع الزكاة وخمس الغنائم، أيد مذهب مالك وأهل المدينة الذي يرى أن يكون الإعطاء في الأصناف المذكورة في آيتى الزكاة والغنيمة ، ولا تجب القسمة عليهم جميعا ولا التسوية بينهم فيها ، وفي ذلك يقول

محتجا لرأيه : « ومن تأمل النصوص وعمل الرسول - ﷺ- وخلفائه وجدها تدل على قول أهل المدينة ، فالرسول كان يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام ، ويعين الأخماس في أهلها مقدما الأهم فالمهم ، فيزوج منه عازبهم ، ويقضى منه ديونهم ، ويعين ذا الحاجة منهم ، ويعطى عازبهم حظا ، ومتزوجهم حظين ، فقد ثبت في الصحيح أنه - ﷺ - قسم يوم حنين في المؤلفة قلوبهم من الفيء ، ولم يعط الأنصار شيئا ، فعتبوا عليه ، فقال لهم : ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتنطلقون برسول الله - ﷺ - تقودونه إلى رحالكم ، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » .

وعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أتاه الفيء قسمه من يومه ، فأعطى ذا الأهل حظين وأعطى العزب حظا ، فلم يكن الرسول ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية ولا على التفضيل ، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة .

وكما أنه لم يتعصب لمذهب الحنابلة كان لا يتعصب أيضا لآراء أستاذه ؛ حيث كان يعارضها في قوة ودقة إن بدت له ضعيفة المستند لا تتوافق مع الفهم السديد في رأيه .

ولقد عاش ابن القيم في عصر ضعفت فيه شوكة المسلمين ، نتيجة للخلافات والاضطرابات التي جعلتهم متفرقين ، وأدرك أنه لا تتأتى لهم النجاة من هذا الانحلال إلا بجمع صفوفهم تحت راية واحدة ، وإزالة ما بين هذه الفرق المتعددة من خلاف في الآراء ، ورأى مثل أستاذه : أن خير طريق يحقق هذا هو العودة بالأحكام إلى ما كان عليه السلف الصالح من تحكيم الكتاب والسنة ، ونبذ التقليد الذي قضى على التحرر الفكري ، ومحاربة التلاعب بالدين عن طريق ما يسمى بالحيل، وتفهم روح الشريعة بما يتناسب ومقاصد الشرع ، إذ كان يرى أنه أهدى

الفرق سبيلا ، وأفضل الناس بعد الأنبياء هم أصحاب رسول - ﷺ - ، والتابعون لهم ، وتابعو التابعين ، وأن معرفة أعمالهم وأقوالهم في علوم الدين خير وأنفع ؛ لاتصالهم بالرسول - ﷺ - أو قرب عهدهم به .

وقد انتحى ابن القيم في طريقته الاجتهادية نفس المنحى الذي انتحاه ابن حنبل، وابن تيمية ، فرأى أن الكتاب والسنة هما الأصلان الأولان للاستنباط ، ولا يجوز تجاوزهما إلى غيرهما مادام يوجد الحكم فيهما، واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1]، واعتبر الإجماع في المرتبة الثالثة ، ويرى أنه عدم العلم بالمخالف منهم ، أما الإجماع بمعنى اتفاق مجتهدي الأمة على الحكم فقد استبعد وجوده .

واعتمد القياس ، واستدل عليه بكتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ، وباستعمال القرآن له في غير موضع ، مثل قياسه الخلق الجديد الذي أنكره الكفار على خلق السماوات والأرض : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[2] وبوروده في السنة ، ومن ذلك حديث عمر رضي الله عنه عندما قال للرسول : «صنعت اليوم يا رسول الله أمرا عظيما : قبلت وأنا صائم ؟ فقال له الرسول : «**أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟**» فقلت : لا بأس بذلك . فقال : «**فصم**»[3].

وأخذ بالمصلحة المرسلة حيث لا نص ، ومن هذا قوله بإلزام الصناع القيام بعملهم إن امتنعوا . وقال بسد الذرائع ، وبالغ في الاعتداد به ، واستدل له بعديد من

(١) الأحزاب : ٣٦.
(2) غافر : ٥٧ .
(3) أبو داود / باب الصوم / ٣٣ .

الأدلة ، منها أن الشارع نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو يستام على سومه ، أو يبيع على بيعه ، وما ذلك إلا لأنه ذريعة إلى التباغض .

وقرر أن العرف له تأثير عظيم في كثير من أحكام التشريع الإسلامي ، وأن الدعاوى قد يؤيدها العرف ، وما يؤيده منها فهو أقرب للحق من غيره ، وأنه يجري مجرى اللفظ في عديد من المواضع ، فأجاز للإنسان ذبح شاة غيره وقد أشرفت على الهلاك حفظا لماليته ، وقد رمى المخالف في ذلك بالجمود حيث قال : «ولم يعلم هذا اليابس أن التصرف في ملك الغير إنما حرمه الله لما فيه من الإضرار به . وترك التصرف هنا هو الإضرار بعينه » .

وزيادة على تنقيحه وترتيبه لكتب أستاذه ابن تيمية ، ألف ابن القيم عديدا من الكتب أوصلها بعضهم إلى ستة وستين في موضوعات مختلفة ، وهي تدل على ثقافته الواسعة ، وإلمامه بكثير من علوم عصره إلمام المتخصص المتبحر ، حتى إن المطالع لكتبه يتملكه العجب من متانة الأسلوب ، وحسن الديباجة ، وعمق النظر ، وحرية التفكير ، وسعة الاطلاع ، وكان في أسلوبه طويل النفس يذكر المسألة الواحدة فيشبعها بحثا وتمحيصا ، ويقيم عليها الأدلة العقلية والنقلية . وكانت طريقته في أكثر بحوثه أن يذكر النص أولا فيجعله أساسا لبحثه ، ثم يشرع في استنتاج المسائل منه . وبهذا خالف غيره من المؤلفين الذين كانوا يعرضون المسألة ثم يؤيدونها بالدليل .

وأشهر تآليفه – في التفسير :

1- في البيان في أقسام القرآن : تفسير المعوذتين ، تفسير الفاتحة .

2- في الحديث : كتاب تهذيب السنن لأبي داود ، الوابل الصيب من الكلم الطيب ، الداعي إلى أشرف المساعي .

3- في الفقه وأصوله : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، الصلاة وأحكام تاركيها ، تحفة المودود وأحكام المولود .

4- في الوعظ والإرشاد : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، طريق الهجرتين وباب السعادتين .

5- في علم الكلام : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، الكافية في الانتصار للفرقة الناجية ، هداية الحيارى من اليهود والنصارى .

6- في السيرة النبوية : زاد المعاد في سيرة خير العباد .

ويبدو أن ابن القيم من خلال تآليفه كان مفسرا ، محدثا ، فقيها ، متكلما ، مؤرخا أديبا ، لغويا ، مطلعا على كتب الأديان السابقة من يهودية ومسيحية وغيرهما ، كما كان محيطا بما يمكنه من رد شبهات أهل الزيغ عن التعاليم الإسلامية الصحيحة .

ولهذا ولغيره من أسباب .. اعتبر المؤرخون ابن القيم الجوزية من مجددي القرن الثامن الهجري .

* * *

ابن هشام الأنصاري

ابن هشام الأنصاري : أحد مجددي القرن الثامن الهجري ، وأحد الصالحين القلائل الذين يجمعون بين الفقه في الدين والتفقه في اللغة . فإلى جانب اهتمامه البارز بالقضايا الفقهية على المذهبين: الشافعى والحنبلى، وكتابته عددا من المؤلفات في شرح هذين المذهبين ، فإنه قد عنى عناية فائقة بعلم النحو ، الأمر الذي جعل العلامة «عبد الرحمن بن خلدون» يذكره في مقدمته الشهيرة على أنه من المراجع الموثوق بها في هذا العلم على وجه التحديد ، ومفضلا إياه على الكثيرين من علماء النحو ، وفي مقدمتهم سيبويه ، للدور الجليل الذي قام به في عملية تيسير النحو بشكل يضمن سلامة اللغة العربية ، وفي الوقت نفسه يؤكد ثراءها وجلالها ، وسعة استخداماتها .

وابن هشام الأنصاري من مواليد القاهرة ، حيث ولد سنة ثمان وسبعائة . ونشأ بها ، وتلقى دراسته الأولى في دور العلم المتاحة وقتئذ ، فالتحق بمكاتب تحفيظ القرآن الملحقة بالمدارس ، والخانقاوات المنتشرة في ذلك الوقت . حيث تعلم شيئا من العلوم الدينية إلى جانب إتمامه حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل صبيا صغيرا ، بل وأتقن إلى حد كبير قواعد اللغة العربية إتقانا شد انتباه أساتذته ، خاصة وهو في هذه السن المبكرة . حتى إذا أتم المرحلة التمهيدية في التعليم التحق بالمدارس التى تطور تعليمه فيها ، فدرس أصول الدين ، كالفقه والحديث والتفسير وكذا علوم اللغة كالنحو والصرف والبيان ، فضلا عن دراساته العقلية للفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام .

وكما تسجل الدكتورة «سعاد ماهر» في تأريخها لمسجد هذا الرجل الصالح ، بالإشارة إلى تاريخ حياة هذا العالم الفقيه ، بأن حياته العلمية كانت حافلة بألوان من

النشاط الفكري ، إذ لم يقتصر جهده على التدريس بمدارس مصر فحسب ، بل تجاوزها إلى غيرها من مراكز العلم والثقافة في البلاد العربية. فرحل إلى مكة، وجاور بها ، وقرأ ودرس كتاب سيبويه عدة مرات ، واطلع على غيره من كتب علماء اللغة ، إلى جانب لقاءاته بعدد من علماء الأمة الإسلامية وقتئذ .

لقد أقام ابن هشام في مكة لغرض العلم والدين سنة كاملة ، قام فيها بتأليف كتاب في الإعراب ، ورجع إلى مصر ليبقى بها سنتين أو ثلاثا ، يعود بعدها مجاورا في مكة ، حيث اطلع على كل ما كتب في علوم اللغة من نحو وصرف وبيان ، وقد أعانته هذه الاطلاعات الواسعة على ما أنتجه العقل في كل هذه المناحي اللغوية .. على تأليف كتابه : (المغني).

وطبيعي.. وقد ولد ابن هشام ونشأ حياته في مصر أن يتزوج منها، وينجب عددا من الأبناء ، يشتهر منهم ومن أحفاده العلماء والفقهاء والأدباء ، وأن يتتلمذ على يديه وعلى أيدي أبنائه كثير من العلماء والفقهاء والأدباء ، حتى أصبح مألوفا أن يقال عنه وعن ذريته في الكتابات القديمة : «هكذا ظلت غرسة العلم التي استنبتها ابن هشام بكده وكدحه في أسرته .. يتوالى على العناية بها من بعد أبناؤه وأحفاده إلى زمن غير قصير ، ويستظل بها طلاب العلم والمعرفة في أكثر من جيل وأكثر من مكان ».

والحق أن ابن هشام قد أخذ عن شيوخه وأساتذته ، سواء في مصر أو في الحجاز– الشيء الكثير ، فقد انتفع بما لديهم من علوم العصر وفنونه ، وكان ما انتفع به خير عدة ، وأصلح ذخيرة ، انتفع بها في حياته العلمية والفقهية ، فأثبت تفوقه وتقدمه عن جدارة ، حيث بز علماء وفقهاء عصره في القاهرة وفي مكة ، سواء في الفقه اللغوي أو الديني ، أو التأليف ، أو التدريس .

ففي الفقه يحدثنا «ابن إياس» عن جهود ابن هشام ، فيذكر أنه كان شافعي المذهب ، حيث نشأ وتربى على هذا المذهب ، ودرس الفقه الشافعي عندما كان يقرأ

(الحاوي الصغير) للإمام الشافعي ، كذلك كان يدرس التفسير على المذهب الشافعي ، وله في ذلك كتابات وتلاميذ .

غير أن ابن هشام لم يقتصر في دراسته على المذهب الشافعى ، فقد انتقل إلى المذهب الحنبلى قبل وفاته بسنوات قليلة ، وله في ذلك كتابات ودروس كثيرة ، وربما لو طال به الزمن لكانت تتساوى مع كتاباته ودروسه في الفقه الشافعى ، الذي أنفق في قراءته وتأمله وتفسيراته الجانب الأكبر من حياته - ومع قصر الفترة التي اهتم فيها بالفقه الحنبلي نراه قد استفاد وأفاد من كان بعده .

وفي علوم اللغة لا يقل إسهامه فيها عن الإسهام في العلوم الفقهية .. وقد كان ابن هشام موضع تقدير معاصريه من العلماء والمؤرخين لما قدمه في هذا المجال من جديد بز به السابقين من النحاة .

لقد قال عنه السبكي : «إنه نحوي هذا العصر».

ولقبه الصفدي «بشيخ النحاة» .. وترجم له «ابن مفلح المقدس» فقال : «إن ذكر ابن هشام سار في الآفاق ، وانتهت إليه مشيخة النحو في الدار المصرية ، وأنه كان متفردا في هذا الفن على وجه التخصيص ».

وقال عنه «ابن تغري بردي» : «وأما العربية فكان من المشار إليها فيها ، والمعمول على كلامه عنها ، وهو فارسها ، ومالك زمامها ، وله فيها التصانيف المفيدة الجيدة».

يصفه «ابن حجر» بأنه كان فاضلا ، متواضعا ، تقيا ، صالحا ، ثم يقول عنه : «إن ابن هشام الأنصاري انفرد دون غيره من أبناء زمانه بالفوائد الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ، والتحقيقات البالغة ، والاطلاعات المفرطة ، والاقتدار على التصرف والكلام ..».

وذكره السيوطي فقال : «كان أوحد عصره في تحقيق النحو ، وكان صالحا خيرا دينا ...» .

وترجع الدكتورة سعاد ماهر تفوق ابن هشام الأنصاري في النحو إلى استفادته من عدد من العلماء والفقهاء فتقول : «لقد درس ابن هشام العربية على «ابن المرحل» الذي كان إماما في النحو ، مدققا فيه ، عارفا باللغة وعلم البيان والقراءات .. وعلى «الشيخ تاج الدين الفاكهاني» الحديث ، والفقه ، والأصول العربية والأدب ، وسمع من «الشيخ شمس الدين بن السراج» الذي وصفه ابن الجزري بأنه كان ينقل القراءات نقلا جيدا ، وإليه انتهت الرياسة في تجديد الكتابة (الخط) وإسناد القراءات بالديار المصرية .

كذلك تفقه في الحديث على يد قاضى القضاة «بدر الدين بن جماعة» الذي كان محدثا فقيها ، كما حضر دروس «الشيخ تاج الدين التبريزي» ، الذي يقول عنه الإسنوي: «إنه كان مطلعا على غالب الفنون والفقه والنحو والحساب والفرائض».

وعن تحول ابن هشام عن مذهبه الشافعي إلى المذهب الحنبلي ، تقول الدكتورة سعاد ماهر : « إن ابن هشام لم يكن الفقيه الوحيد الذي تنقل من مذهب إلى آخر ، فهناك «الشيخ أبو حيان المالكى» الذي تحول إلى المذهب الشافعي ، فلما سئل عن السبب في ذلك أجاب : «بحسب البلدة» . وغيره كثير من العلماء والفقهاء ، مثل «الشيخ ابن مالك المالكي» الذي تحول إلى المذهب الشافعي ، و«ابن الدهان البغدادي» الذي تفقه على مذهب أبي حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لما تولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية في بغداد ، التي ينص واقفها على أن يكون واجبا على من يتولى تدريس النحو بها أن يكون شافعيا ..».

ولم يقتصر تقدير ابن هشام العلمي على معاصريه ، أو على من جاء بعده من العلماء المصريين بمئات السنين ، بل إن تقديره امتد ليعرفه قراء ابن خلدون من الأجانب، حيث ذكره في مقدمته فقال: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : ابن هشام النحوي الأنصاري .. أنحى من سيبويه ..».

ويضيف ابن خلدون عند حديثه عن كتابه (مغني اللبيب) لابن هشام قائلا : «فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ، وموفور بضاعته ..».

وهكذا .. كانت شخصية ابن هشام الفقيه النحوي .. شخصية تجمع بين التفقه في العلوم الدينية إلى جانب التفقه في العلوم اللغوية ، فكان موضع احترام علماء وفقهاء زمانه ، وظل كذلك إلى أن توفاه الله في عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة ، فيقام له ضريح شأنه شأن الأولياء الصالحين في مواجهة باب النصر خارج سور القاهرة القديم ، يعرف بضريح الإمام الصالح ابن هشام الأنصاري .

* * *

ابن بطوطة

محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي الشهير بابن بطوطة: أحد مجددي القرن الثامن الهجري ، حيث ولد عام 703 هـ (24 فبراير1304م) في طنجة . بدأ بالحج إلى مكة عام 725 هـ (1325م) عن طريق شمال إفريقية ، فمصر العليا، فالبحر الأحمر ، ولم يستطع أن يجد هناك وسيلة آمنة لعبور البحر ؛ فعاد أدراجه ، ووصل إلى غايته عن طريق الشام وفلسطين ، ومن مكة اخترق العراق ، ثم زار بلاد العجم ، كما زار الموصل وديار بكر ، وزار مكة للمرة الثانية وقضى فيها عامى 729 و 730هـ، وذهبت به رحلة ثالثة إلى جنوبي بلاد العرب فإفريقية الشرقية ، وعاد منها إلى الخليج الفارسى ، ومن هرمز رجع إلى مكة ثم عاد إلى آسيا الصغرى وبلاد القرم عن طريق مصر والشام ، وزار القسطنطينية في حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزبك . ومن الفلجا اخترق خوارزم وبخارى وأفغانستان في طريقه إلى الهند ، وولي القضاء في دهلى ، واشترك بعد عامين في بعثة سياسية إلى الصين ، ولكنه لم يصل إلا إلى جزائر المالديف Maldives حيث ولي القضاء مدة عام ونصف عام ، وذهب من هناك إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال والهند الأقصى ، وليس من المحقق أنه تجاوز زيتون Zaitun وكانتون Canton . ثم رجع إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة ونزل إلى البر في المحرم 748 هـ عند ظفار ، وبعد رحلة في بلاد العجم والشام وما بين النهرين قام من مصر إلى مكة لأداء فريضة الحج للمرة الرابعة، ثم عاد فاخترق شمال إفريقية ، ودخل مدينة فاس في شعبان عام 750 هـ ، وبعد أن مكث فيها مدة طويلة ذهب إلى غرناطة . وقادته رحلته الأخيرة الطويلة إلى بلاد السودان بإفريقية عام 753 – 754 هـ : فزار تمبكتو ومالي ، ثم رجع إلى مراكش عن طريق واحتي غات وتوات ؛ وهناك أملى أخبار رحلته على العالم «محمد بن محمد

ابن جزي» فكتبها ابن جزي في أسلوب أدبي تأثر فيه كثيرا بكتاب ابن جبير ، ومات ابن جزي عام 757 هـ .

هذا بعض ما سجلته دائرة المعارف الإسلامية في تناولها للمادة الخاصة بالرحالة المغربي ابن بطوطة.. وتوضيحا لما جاء في هذه المادة الموسوعية، لعلنا نستأنس بما كتبه المؤرخ الإسلامى الدكتور «محمد مصطفى زيادة» من تعليق يدور حول ما كتب في دائرة المعارف ، وبالتالي يدور حول هذه الشخصية ، فنتبين أن ابن بطوطة توفي سنة 770 هـ (1368– 1369م) ، وأن اسمه موجود حتى الآن بمراكش ، وأن له بمدينة الإسكندرية ، التى زارها ابن بطوطة، في أول سفرة له، طريقا سمى باسمه. ثم إنه لما كان ابن بطوطة لواتيا أولا، طنجيا ثانيا، فإن موطنه الأصلى بلاد برقة، قرب الحدود المصرية الغربية ، حيث كانت مساكن قبيلة لواتة ، إبان ظهورها بكتب التاريخ .

ولقد أنجبت أسرة ابن بطوطة عدة قضاة ، منهم الرحالة نفسه ، وابن عم له كان قاضيا بمدينة أندة ، بين إشبيلية ومالقة بالأندلس الإسلامية . فابن بطوطة إذا وليد أسرة عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية، أي: الدينية ، وهو– على حد التعبير الأوروبي– من أبناء الطبقة الدينية العليا ، في المجتمع الإسلامى في القرون الوسطى. ولذا .. فالراجح أنه درس العلوم الدينية ، وتفقه فيها ، يضاف إلى هذا أنه تعلم الأدب ، ومارس الشعر ، ودرس اللغة الفارسية ، كل ذلك في بطن مجلدات كتابه . الذي حققه فيما بعد الدكتور «عبد الهادي التازي» .

وفي سن الحادية والعشرين سافر ابن بطوطة وحده من طنجة ، في الثاني من رجب 725 هـ (14 يونيه 1325 م) لأداء فريضة الحج ، فاتخذ طريق الحج المعتاد من بلاد المغرب ولحق بقافلة غرضها الحج مثله . ويظهر أن علمه وتدينه قرب إليه قلوب أفراد القافلة ، فعينوه قاضيا عليهم قبيل مسيرهم من تونس .

زار ابن بطوطة قاضى الإسكندرية عندما وصلها، ونزل ضيفا على أحد علمائها، المسمى : «برهان الدين» ، ثلاثة أيام ، من مدة إقامته هناك . ولقد توسم فيه برهان الدين حب التجوال ، وأوصاه إذا ذهب إلى الهند ، أو السند ، أو الصين أن يزور

أفرادا سماهم له ، ويظهر أن أطراف هذا الحديث المبروك حركت في قلب الشاب ابن بطوطة عزما على زيارة جميع البلاد الإسلامية ، وأن هذا العزم قوى عزم نفسه ، بعد تجاربه أثناء السفر إلى مكة، ذلك أنه زار في طريقه إلى القاهرة أحد الأولياء الصالحين، وكان مقيما بقرية قبالة بلدة فوه على النيل ، فرأى في منامه – وهو عنده – أنه زار مكة واليمن والهند على جناحى طائر أخضر: وقد قص رحالة المستقبل رؤياه على الشيخ، ففسرها بأنه سيزور مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند . ومما قوى عزم ابن بطوطة أيضا أنه لم يستطع الذهاب إلى مكة عن طريق عيذاب المصرية ، فاضطر إلى السفر إلى مكة مع الركب الدمشقي .

وحدث أنه وصل دمشق قبل قيام الركب بشهور ، فصرف وقته في زيارة الشام جميعها ، حتى حدود آسيا الصغرى ، وذاق حلاوة السفر والتجوال لغير غرض سوى الاستطلاع والاستمتاع .

ليس بغريب إذا .. أن يغرم ابن بطوطة بالتجوال والترحال بعدما سمع من عالم الإسكندرية وشيخ فوه ما سمع ، وبعد ما رأى من أرض الشام ما رأى ، وأن يزيد هذا الغرام كلما زاد هو في أسفاره ، لاسيما وأن مركزه الدينى سهل عليه كثيرا من عثرات التنقل ووعثاء السفر ، لأنه كان موضع التجلة والاحترام ، في معظم الأمكنة التي حل بها .

ويتجلى حب الاستطلاع الذي حمل ابن بطوطة إلى الأماكن النائية كالهند والصين ، فيما ورد في كتابه عن هذين البلدين ، كما يتجلى أيضا اهتمامه برجال الدين وأمور الدين في كل صحيفة من كتابه . وهذا كله يميز كتاب (تحفة النظار) عن كتب الرحلات ، فإنه ليس كتابا وصفيا للبلاد والجبال والأنهار التى رآها ابن بطوطة ، بل هو عبارة عن مجموعة من الصور التى امتزجت بالتاريخ الاجتماعى في الإسلام أكثر منه كتابا في تقويم البلدان التقليدي ، ولعل هذا هو التجديد الذي أتى به ابن بطوطة.

* * *

الشاطبي

ابن غرناطة بالأندلس المسلمة ، إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي، أحد مجددي القرن الثامن الهجري. الذي كان يشتهر في التاريخ الإسلامي بأبي إسحق الشاطبي ، كما كان يعرف في مجال العقيدة والدين ، والتفكير الإسلامي بوجه عام بأنه كان محدثا ، فقيها ، لغويا ، مربيا ، فقد جمع كل هذه الجوانب في شخصيته التي قلما تجتمع لرجل واحد . هذا إلى جانب أنه برع في كل جانب من هذه الجوانب . ففي مجال الحديث كان دقيقا محددا لا يتحدث في شيء إلا وهو مدرك تماما مصادره في مظانها الأولى ، وفي مجال الفقه كان لا يعمل إلا وهو واثق تماما مما يعمل في تفقيه الناس ، وفي مجال اللغة وبحثها كان يجول في بحارها مستخرجا لآلئها من مخزونها الثري بكل عزيز وجميل ، وفي مجال التربية لعله كان متفردا متميزا عن علماء وفقهاء عصره في أنه أتى بجديد في مجالها كما سنرى بعد قليل.

هذا العالم والفقيه المتعدد الجوانب عاش في غرناطة ، ولعله قضى جانبا من حياته في مدينة شاطبة بالأندلس، ولذلك نسب إليها على غرار عالم آخر هو «القاسم ابن فيره» الذي سبق الحديث عنه في هذه الصفحات ، وفي غرناطة تلقى العلم على أيدي عدد من علماء زمانه الموجودين بالأندلس ويتقدمهم : التلمساني ، والسبتى ، وغيرهما، واستفاد من بعض خصائص وسمات الثقافة العربية الإسلامية، وقدرتها على الأخذ والعطاء ، التأثير والتأثر، وعلى هذا .. فلم يقتصر على ما تلقاه من العلم ، بل اجتهد في طلب المزيد منه سواء من الأندلس، أو مما حولها من الحواضر الإسلامية وقتئذ، تلك التى كانت تعج بالعلم والعلماء.. حتى أصبح من كبار العلماء، بالصورة التي جعلته يستطيع أن يناقش كبار الأئمة والعلماء في الكثير من الموضوعات التي

تهم معاصريه ، ولهذا .. أصبح بيته ملتقى لكل صاحب حاجة في الفقه أو في اللغة أو التربية أو في الحديث الشريف وتفسيره .. وأصبح من أكبر علماء وأئمة الأندلس .. وذلك لحرصه الشديد على اتباع الكتاب والسنة ، واقتدائه بما جاء عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين . وفي الوقت نفسه كان رافضا للبدع والشبهات تلك التى تضلل المسلمين وتصرفهم عن أمر دينهم الحقيقى والأكثر تقسيماتهم إلى شيع وأحزاب ، وهو ما ينهى عنه ديننا الذي قام على الوحدة والتماسك في أمة واحدة .

ولعل حرصه الشديد على اتباع أمر ديننا ، وإنهائه عن اتباع البدع والشبهات قد تسبب عنه الكثير من الخلافات مع بعض الأئمة الذين كانوا يتساهلون في السماح بها والموافقة – أحيانا – عليها إرضاء للعامة ، حيث لم يسلك أسلوب هذا النفر من الأئمة والعلماء . ولعله في ذلك كان يسلك مسلك علماء المسلمين الأوائل ، الذين كانوا يرفضون مسايرة العامة ، والعمل على توجيههم إلى أمر دينهم الصحيح ..

وتأسيسا على ذلك .. فقد كان الشاطبي لا يأخذ الفقه إلا من الكتب الموثقة ، ولعله أشار إلى شيء من ذلك في كتابه «الموافقات» حيث قال مخاطبا غيره : «وأما ما ذكرتم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة ، فليس ذلك مني محض رأي ، ولكنني اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع المتأخرين ، كابن البشير وابن الحاجب ومن بعدهما . ولأن بعض من لقيته من العلماء أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين ، وأتى بعبارة خشنة ، ولكنها محض النصيحة ، والتساهل في النقل عن كل كتاب جاءه لا يحتمله دين الله ، ومثلما إذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض الأصحاب : لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ، ونص ذلك القول لا يوجد لأحد من العلماء فيما أعلم ..».

وتستوقفنا من هذه الإشارة قوله : «وأتى بعبارة خشنة» ، والتي نقلها عن صاحبه «أبي العباس القباب»– كما يذكر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» – حيث

يقول مجددنا الشاطبي : إن ابن بشير وابن شاس ومن بعدهما أفسدوا الفقه ، وكان يقول أي الشاطبي : شأني في عدم الاعتماد على التقاليد المتأخرة ، إما للجهل بمؤلفها أو لتأخر أزمنتهم جدا ، فلذلك لا أعرف كثيرا منها ولا أقتنيه، وعمدتي- أي : مصادري الأساسية - كتب الأقدمين من المشاهير ».

وهكذا .. كان لهذه النزعة الإصلاحية عند الشاطبي أثرها في كتابين من كتبه ، وهما : كتاب (الموافقات) ، وكتاب (الاعتصام). فأما كتاب «الموافقات» فهو في علم أصول الفقه ، وهو يقوم على ركنين : **أولهما** علم اللغة التي نزلت الشريعة بها ، **وثانيهما** علم أسرار الشريعة ومقاصدها ، وقد اهتم الذين ألفوا في علم أصول الفقه بالركن الأول وهو علم اللغة ، ولكنهم أهملوا الكلام على الركن الثاني باستثناء إشارات إليه في باب القياس . فلما وضع الشاطبي كتاب «الموافقات» سلك في هذا العلم مسلكا جديدا : أبى أن يدور فيه مثل الذين داروا : من قبله ، ومن عاصره فاهتم بهذا الركن الثاني ، وقسم الشريعة إلى أربعة أنواع ، ثم أخذ يفصل كل نوع منها ، وأضاف إليها مقاصد المكلف في التكليف ، وبسط هذا الجانب من العلم في اثنتين وستين مسألة ، وتسعة وأربعين فصلا ، مبينا كيف كانت الشريعة مبنية على مراعاة مصالح الناس ، وأنها نظام عام لجميع البشر دائم وأبدي ، حتى لو فرض بقاء الدنيا إلى غير نهاية .

وهذه الناحية من التجديد لها قيمة عظيمة ؛ لأنها تقضي على جمود الذين يفتون في الشريعة عند دلالة النصوص في ذاتها ، ويغفلون النظر في مقاصدها وأهدافها وأغراضها. وبهذا.. يكون للشاطبي ذلك الفضل الكبير بالطبع بعد الإمام الشافعي؛ لأنه سبق العصر الحديث بمراعاة ما يسمى بروح الشريعة أو روح القانون ، وذلك في اهتمامه بمقاصد الشريعة وأهدافها وأغراضها .

وأما الكتاب الثاني «الاعتصام» فهو في نقد الحياة الدينية الاجتماعية بين المسلمين ، وبيان ما دخل فيها من البدع المذمومة ، ولاسيما البدع الدينية ، كالتزام المصلين في البقاء بعد الصلاة لقراءة الأذكار والأدعية حتى كادت أن تكون شعارا من شعائر الدين . وقد ذهب في ذلك إلى أن ذلك بدعة ، وكل بدعة في الدين مذمومة فهي ضلالة لا يحسن اتباعها .

وقد تناول بالنقد أمرين على جانب كبير من الأهمية .

أولهما : مذهبه في إحداث «الربط»، وهي بخلاف «الربط» التزام سكناها بقصد الانقطاع للعبادة ، وهي أيضا بخلاف «الربط» من الحصون والقصور التي كانت تبنى بقصد الرباط فيها ، لأن هذه الربط تدخل في وظيفة الجهاد ، وهو أصل من أصول الدين المعروفة ، فلا يمكن أن يقال عنها بدعة من البدع ، بخلاف الانقطاع للعبادة في تلك «الربط» ، وقد ذكر الشاطبي أن أصحابها يتعلقون ويتمسكون فيها بالصفة التي كانت في مسجد النبي - ﷺ - ، ليجتمع فيها فقراء المهاجرين ، ثم رد على ذلك بأن حالة اجتماع فقراء المهاجرين بمسجد النبي الكريم كانت حالة «ضرورة» كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾[1] ، فإنه قال سبحانه وتعالى : «اخرجوا» ولم يقل «خرجوا» ، فهم قد أخرجوا من ديارهم وأموالهم اضطرارا ولم يمكنهم بناء دور بالمدينة بعد الهجرة إليها لفقرهم . فآواهم النبي - ﷺ - في مسجده ولا يجوز التعلق بهذه الصفة.

والشاطبي هنا لا يخالف إلا في بناء الربط والزوايا للانقطاع للعبادة ، أما الانقطاع للعبادة في مسجد أو منزل فلا يعارضه ، بدليل إقراره لما كان عليه سلف هذه الطائفة من الزهد والانقطاع للعبادة في غير هذه الربط وهذه الزوايا .

(١) الحشر : ٨ .

وثانيهما : مذهبه في علم الكلام ، فقد ذهب مذهب كل من ابن تيمية وابن قيم الجوزية حيث يكون مجددا في ناحية الفقه وأصوله ، وإن كان دونهما في ذلك وجامد بل ومتشدد في العقائد .

يضاف إلى ذلك موقف تجديدي ينسب إلى الشاطبى ، ويحسب له في ميزان التجديد في الإسلام أراه جديرا بالاهتمام إلى جانب ما أشار إليه الأستاذ الصعيدي ، هذا الجانب يتعلق باحتواء كتاب «الموافقات» ، وهو جانب على قدر كبير من الأهمية وهو الخاص بالتربية والتعليم ، حيث جاء ببحث مهم في التوجيه المهني ، مبينا ضرورة العناية بالغرائز والميول والاستعدادات التي فطر عليها كل صبي في مقتبل العمر ، وإعداده للمهنة التي يصلح للعمل بها ، وربما يبرز فيها . فيكون له شأن في المستقبل .. ولعل هذا الجانب من تفكير الشاطبي يمكن أن يقال عنه باطمئنان : إن صاحبه كان سابقا أصحاب نظريات التربية وعلم النفس من المحدثين ، الذين اهتموا بوضع الفرد المناسب في المكان الذي يمكن أن يفيد منه المجتمع ، والذي يتوافق مع قدراته وإمكاناته ، ولن يتأتى ذلك إلا بالعناية بالغرائز والميول والاستعدادات الفطرية التي نبه إليها الشاطبي قبلهم بأكثر من سبعة قرون .

* * *

الذهبـي

مؤرخ الإسلام وفقيهه : الحافظ شمس الدين الذهبى ، واسمه : شمس الـدين ابن محمد بن أحمد بن عثمان بن فايماز الفارقي الدمشقي ، من مجـددي القـرن الثـامن للهجرة ، حيث عاش ومات ما بين عامي 673 هـ ، 748 هـ .

ولعل شـهرته - كمـؤرخ - كانـت بـسبب سـفره العظـيم وعنوانـه : (تـاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) تحقيق الأستاذ «محمـد محمـود حمـدان» ، هـذا السفر يتفرع إلى عدة مجلدات تنقسم إلى قسمين رئيسيين : **أحدهما** تدور مادة مجلداته حول المغازي الكـبرى في بـدء الإسـلام وظهـوره ، باعتبارهـا مـن الحـوادث التـى اشتملت عليها السنوات الأولى من التاريخ الهجري للإسلام ، **والقسم الثـاني** يـدور حول أحداث السيرة النبوية الشريفة ، عـلى اعتبـار أن تـاريخ وفـاة النبـى - ﷺ - ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى كانت سنة إحدى عشرة للهجرة كما هو معروف أي : بعـد حدوث هذه المغازي.

وقبل أن نتعرف على بقية مؤلفاته ومنها كتـاب (الكبـائر) لنـا أن نتعـرف عـلى مؤلفها الحـافظ الـذهبى ، حيـث نقـرأ مـا كتبـه محقـق الكتـابين (تـاريخ الإسـلام) و(الكبائر) الأستاذ «محمد محمـود حمـدان» ، حيـث يـسجل أن مولـد الـذهبي كـان بدمشق ؛ ولذلك فاسمه نسب إليها «الدمشقي».

ونشأ الذهبى - في الربع الأخير من القرن السابع الهجـري - نـشأة يـسرت لـه طلب العلم وحببته إليه وأعانته عليه ، فكان بين أهل بيته وذوي قرابتـه غـير واحـد ممن يعنون بطلب الحديث ويحضرون مجالس السماع للسلف الـصالح ويـروون عـن الشيوخ ، منهم عمته «ست الأهل بنت عـثمان» (653- 729 هــ) وقـد أرضـعته في

طفولته ، وكانت تطلب الحديث وترويه ، وأجاز لها جماعة من الشيوخ الذين روى عنهم الذهبى فيما بعد ، كما روى هو عنها . ومنهم خاله «على بن سنجر بن عبد الله الموصلى» ، ثم الدمشقى ، (658 – 736هـ) ، وقد سمع مع الذهبي ببعلبك من التاج عبد الخالق ، وروى عنه الذهبي أيضا.

وبدأ الذهبي تحصيله وهو في نحو الخامسة من عمره ، حيث التحق بمكتب أحد المؤدبين بدمشق ؛ وهو «علاء الدين على بن محمد الحلبي» المعروف بالبصبص ؛ فمكث به أربعة أعوام ، عرف فيها قدرا من علوم الدين واللغة والأدب ، ثم نشط لحفظ القرآن الكريم ، فلزم «الشيخ مسعود بن عبد الله الصالحي» المقرئ الذي لقنه القرآن ، وقد جرد عليه الذهبي نحوا من أربعين ختمة .

وفي سنة 691 هـ كان الذهبي قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وانفتح أمامه باب العلم واسعا ؛ فانصرف إلى دراسة القراءات وطلب الحديث . أما القراءات فقد بدأ دراستها على «الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن داود بن ظافر العسقلاني» ، ثم الدمشقي ، المشهور بالفاضلي ؛ شيخ القراء. وفي الوقت نفسه كان يشرع بالجمع الكبير على الشيخ «أبي إسحاق إبراهيم بن غالي بن شاور» الحميري الشافعي ، نزيل دمشق وشيخ الإقراء بالتربة الأشرفية ومن أعيان القراء .

وقد جمع الذهبي ، كما يقول تلميذه : «الحافظ الحسيني» ، القراءات السبع على الشيخ «عبد الله بن جبريل المصري» ، نزيل دمشق فقرأ عليه ختمة جامعة لمذاهب القراء السبعة بما اشتمل عليه كتاب (التيسير) لأبي عمرو الداني ، وكتاب (حرز الأماني) لأبي القاسم الشاطبي .

وذكر الذهبى في معجم شيوخه أنه قرأ كتاب (المبهج في القراءات السبع) لسبط «الشيخ أبي منصور الخياط البغدادي» ، و(السبعة) «لابن مجاهد» ، وغيرهما ، على شيخه «أبي حفص عمر بن القواس» المتوفى سنة 698 هـ ، وسمع (الشاطبية) من غير واحد من القراء .

وأما الحديث فقد وجد فيه بغيته فأوى إليه وطال اشتغاله به ، ووقف عليه عمره كله ، وسمع ما لا يحصى كثره من الكتب والأجزاء ، ولقي الجم الغفير من الشيوخ والشيخات ، وتعددت رحلاته في طلب السماع ، فزار كثيرا من مدن الشام ، ورحل إلى فلسطين ومصر والحجاز ، وقد بلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم أو أجازوا له نيفا وألف شيخ ، سردهم في (معجم الشيوخ الكبير) ، وذكر جماعة منهم في خاتمة كتابه (تذكرة الحفاظ).

وفي سنة 703 هـ أسند إليه أمر الخطابة بمسجد كفر بطنا ، وهي قرية مشهورة في غوطة دمشق ، وكانت مسقط رأسه ، فأقام بها حتى سنة 718 هـ . وخلال هذه الفترة انصرف إلى القراءة والتأليف إلى جانب قيامه بالتدريس .

وقد بدأ بتلخيص عدد كبير من أمهات الكتب في التاريخ ، وتراجم الرجال التي أفاد منها عندما شرع في تأليف كتابه الكبير (تاريخ الإسلام) في هذه الفترة نفسها ، وقد استغرق تأليفه ما يربو على عشر سنوات .

وفي سنة 718 هـ أسندت إليه مشيخة دار الحديث بتربة أم الملك الصالح ، وكانت من كبريات دور الحديث في دمشق ، فأقام بها واتخذها سكنا له إلى آخر حياته، وفيها توافر على التأليف ، فأنجز الكثير من كتبه ومصنفاته الكبار ، حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفا كما قال عنه الحافظ «ابن حجر» .

وسطع نجم الذهبي في سماء دمشق ، واستفاضت شهرته ، وشهد له معاصروه من شيوخه وتلاميذه بالامتياز والنبوغ ، وتعاظمت مكانته العلمية ، وقصده طلاب العلم من كل مكان ، ونادته السؤالات من كل ناد ، ورغب الناس في كتبه وتداولوها قراءة ونسخا وسماعا . وتوالى اختياره ليتصدر أكبر دور الحديث ومدارسه في دمشق ، وقد ولي منها مشيخة دار الحديث الظاهرية ، والنفيسية ، والفاضلية والتنكزية ، فضلا عن تربة أم الملك الصالح . وقد ظل يجمع بينها ويباشر التدريس والإقراء فيها إلى حين وفاته .

وقد روى «الصلاح الصفدي» في ترجمته للذهبي من كتابه (نكت الهميان) قال: «أخبرني العلامة قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن علي السبكي الشافعي قال: عدته ليلة أن مات، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: في السياق. وكان قد أصيب - رحمه الله تعالى - قبل موته بأربع سنين أو أكثر، بماء نزل في عينيه، فكان يتأذى ويغضب إذا قيل له: لو قدحت هذا لرجع إليك بصرك، ويقول: ليس هذا بماء، وأنا أعرف بنفسي، لأنني ما زال بصري ينقص قليلا قليلا إلى أن تكامل عدمه».

وتوفي الحافظ الذهبي ليلة الاثنين ثالث شهر من ذي القعدة سنة 748 هـ. وعملا بطاعة الله عز وجل وقوله في كتابه الكريم:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾[1]، وقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[2].

وإزاء هذا الأمر الصريح من الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين باجتناب الكبائر، فقد اهتم علماء المسلمين منذ عهد بعيد بتبيين هذه الكبائر وتحديدها تحديدا دقيقا، في ضوء ما ورد عنها في القرآن الكريم، وفي أحاديث النبي - ﷺ - ووضعوا في ذلك كتبا وصل إلينا بعضها، وطوى الزمن البعض الآخر، ومن أهم الكتب التي وصلتنا كتاب (الكبائر) من تأليف مؤرخ الإسلام المحدث الحافظ أبي عبد الله الذهبي.

وقد سبق طبع هذا الكتاب لأول مرة منذ أكثر من خمسين سنة اعتمادا على نسخة سقيمة وغير موثقة ومشكوك في نسبتها إلى المؤلف. إلا أنه نظرا لأهمية الكتاب من الناحية الدينية، ولارتباطه باسم مؤلفه الحافظ الذهبي من ناحية أخرى، فقد لقي الكتاب إقبالا شديدا من القراء، واستحوذ على عقول العامة

(١) النساء: ٣١.

(2) النجم: ٣٢.

والخاصة على السواء ، حتى لقد أعيد طبعه عشرات المرات نقلا عن طبعته الأولى التي تفتقر إلى التحقيق العلمي السليم .

وقد قامت الدار المصرية اللبنانية بإصدار كتاب (الكبائر) في نشرة جديدة علمية ومحققة تحقيقا على أكبر قدر من الدقة والإحاطة واستيفاء عناصر التوثيق الذي تقتضيه قواعد نصوص التراث ، وذلك بالاعتماد على نسخ الكتب المخطوطة بدار الكتب المصرية ، وبالمقابلة على نسخ أخرى مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة . وقد قام بتحقيق هذه النشرة العلمية وقدم لها وعلق عليها وخرج أحاديثها ، ووضع فهارسها الأستاذ / «محمد محمود حمدان» ، حيث اعتمد هذا الفصل عن مجددنا المؤرخ شمس الدين الذهبي ، سواء في التعريف به، أو في الاطلاع على مؤلفاته ، وأهمها : (تاريخ الإسلام) و(الكبائر).

* * *

أبو القاسم الطهطاوي

« الرجل الصالح : أبو القاسم الطهطاوي ، أحد مجددي القرن الثامن الهجري. قبل الإشارة إلى سيرته ودوره ، نشير إلى كل من علمى : الظاهر والباطن ، ليتضح لنا هذا الدور الذي تميز به عن غيره من كبار رجال الصوفية .

وللعلم بالشيء أساليب وطرق ، فهناك العلم بالنقل ، وهو العلم المعروف . ويتأتى للمرء بالرجوع إلى معارف من سبقوه... ينقل منها ما شاء له النقل ، شريطة أن يرجع المصادر إلى أصحابها .

وهذا العلم، ينشأ من كون المعرفة تراكمية ، بمعنى : أن معارفنا كخلف مستقاة من معارف السابقين علينا من السلف ، وبهذا يتوارث العلم الخلف عن السلف ، ولا يمنع هذا النقل عن السلف ، من إضافات للخلف ، يضيفونها إلى ما تركه السابقون ، كل حسب جهده وتفكيره ورؤيته لما بين يديه من مادة علمية تركها السابقون ، وبهذا تتراكم المعارف الإنسانية جيلا بعد جيل ، في تسلسل يحفظ لكل حقوقه فيما أضاف ، وليس هناك إنسان لا يعتمد على معارف من سبقوه إلا آدم عليه السلام ، حيث لم يسبقه بشر ينقل عنه المعارف العلمية .

وهناك العلم بالعقل ، وهذا يعتمد على العلم بالنقل ، فيتأمل المرء ما تركه السابقون ويتدبره ، ويحلله ، وينتهى إلى نتائج تختلف عما سبقوه ، ويكون ذلك بإعمال عقله ، وهو بذلك يرتقى بعلم السابقين ويطوره ويضفى عليه من ذاته أحكاما ونتائج جديدة ، طبقا لخطوات علمية مشروعة ، يقرها العقل الإنساني .

وهذا العلم مشروع حتى في تفكيرنا الإسلامى ، ذلك ؛ لأنه يعتمد أساسا على العقل وتفكيره ، والتفكير فريضة من فرائض الإسلام ، به أمرنا الله عز وجل في

آيات كثيرة تدعو إلى إعمال العقل وتدبيره ، حتى في شأن التعرف على الله عز وجل والإيمان به ، فلم يقدم ذاته سبحانه وتعالى في ألغاز وأساطير ، وإنما قدمها في تأمل صنعه في خلقه وتدبر ذلك ، ولعل هذا هو الإيمان الذي يطلب من المسلم أن يهتدي إلى الله بعقله وتفكيره ، لا أن يكون الإيمان تلقينا بغير علم أو وعى أو فهم ، ولهذا يقولون : إن عبادة العالم خير وأنفع من عبادة الجاهل . إذ إن الأول يعمل تفكيره ، وإذا اهتدى فإنه يهتدي عن اقتناع لا يداخله شك أو ريبة .

كذلك هناك العلم عن طريق القلب وشفافيته ، وهو لا يتأتى بالدرس على الآخرين ، أو النقل عنهم ، وإنما يهبه الله عز وجل في قلب من يشاء من عباده ، ولعل هذا هو أعلى مراتب العلم ، لأنه هبة إلهية للذين يستحقونها من عباده ، هؤلاء الذين أخلصوا لله عز وجل في قلب من شاء من عباده ، ولعل هذا هو أعلى مراتب العلم ؛ لأنه هبة إلهية للذين يستحقونها من عباده ، هؤلاء الذين أخلصوا لله عز وجل ، ولم يشغلهم عنه سبحانه أي من شواغل الحياة الدنيا ، وانصرفوا عن الدنيا وزهدوا فيها، وهذا النوع من العلم لا يتأتى إلا للأولياء الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وأكبر مثل على ذلك هو الخضر عليه السلام ، الذي يلم علما وهبه الله عز وجل له في قلبه دون غيره .

وطبيعي .. أن يكون لهذا العلم درجات حسب قرب العبد من ربه عز وجل .

ويبدو أن علم الشيخ الصالح «أبي القاسم الطهطاوي» من هذا النوع الأخير ، وإلا فما معنى أن يذكر عنه مؤرخوه – وفي مقدمتهم : «أحمد رافع الطهطاوي» – في كتابه : (الثغر الباسم في مناقب سيدي أبي القاسم) و«محمد عبده الحجاجي» في كتابه: (شخصيات صوفية في صعيد مصر في العصر الإسلامى) بأنه لم يتلق درسا ولا علما من أحد ، وأنه لم يجلس حول عالم أو فقيه يأخذ على يديه علوم العقيدة والدين ، ولكنه استهل حياته سائحا هائما في الجبل المقابل للبلدة التي اختارها

مستقرا له : «طهطا» والمعروف بجبل «الساهرة» ، والذي يقع في الجانب الشرقي من هذه المدينة.. بمحافظة سوهاج ... وأنه كان يستمر في سياحاته الروحية شهورا طوالا ، ولا يأكل إلا من عشب الأرض ، وينتقل من مكان إلى مكان ، متدبرا في صنع الله ، ولا يفتر لسانه عن ذكره ، حتى يقول كل من «أحمد رافع» و«الحجاجي» : « وذات يوم حينما فرغ من صلاته وجد شخصا واقفا خلفه ومعه طعام ، فقدمه إليه وقال له : كل وارجع إلى بلدك . فقد أذن لك في الأكل ، وحان وقتك . فقال له أبو القاسم : من أنت ؟ فقال له الرجل : أنا أخوك الخضر . فأكل ، وشرب من تلك العين التي كانت بجواره ، ومن ثم بدأت شهرته تتسع ، وبدأ نجمه يتألق كعلم من أعلام التصوف الإسلامي في القرن الثامن الهجري . وقد أيده الله سبحانه وتعالى بالكرامات ، وأجرى على لسانه الحكم ونوابغ الكلم ، ورفع له المكانة من الخلق ، وملأ الصدور من هيبته ووقاره ... فقصد الناس من مختلف مدن الصعيد للتبرك به ، ومن ناحية ثانية كان رضى الله عنه لا يستقر في مكان أو بلد ؛ حيث كان يتجول ويسيح في مختلف مدن الصعيد ، وخاصة قنا التي كان يزورها باستمرار ، حيث يوجد قبر أستاذه : «عبد الرحيم القنائي» .

ويذكر مؤرخو هذا الشيخ الصالح : أنه تعرض للكثير من الإنكار من علماء عصره ، ومن جملة ما يقوله عنه الإمام العالم المعنى «شمس الدين الراعي» : «.. وقد حضر إليه جماعة من أكابر علماء مصر ، من جملتهم الإمام المفتى ، أحد المجددين في المائة الثامنة للهجرة : «سراج الدين البلقيني» بقصد السلام عليه ، واختبار حاله ، وأضمر كل من الحاضرين حاجة في نفسه ، فتحدثوا معه ، ثم سألوه عن علوم كثيرة وهو يجيبهم عنها ، ثم سكتوا . فتكلم أبو القاسم الطهطاوي بكلام عظيم لم يفهم منه الحاضرون إلا اليسير ، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين عليه في هذا العلم . فنظر هو إليهم ، وأنشد قائلا :

وما علمنا نقل ولا بدراسة ولكن به الأنوار ضاءت من القلب

فقاموا جميعا احتراما له ، وسألوه الدعاء فدعا لهم ، وكاشف لكل منهم ما أضمره في نفسه ... » .

وقد عاش هذا الشيخ الصالح - كما يذكر مؤرخه «أحمد رافع» - حياة لا تعرف الفتور أو الكسل ، بل كان دائما يسعى إلى بناء الفرد الصالح المؤمن بالله حق الإيمان ، حتى توفي في مستهل المحرم من عام 762 في عصر السلطان المملوكي «قلاوون» عن عمر يناهز التسعين عاما . ليدفن في زاوية أنشأها في حياته بمدينة طهطا التي نسب إليها ، وصار له فيها أولاد وأحفاد كثيرون ، من بينهم : رائد النهضة الفكرية في العصر الحديث «رفاعة رافع الطهطاوي» أحد أحفاد أحفاده .

ولم يترك هذا الشيخ الصالح آثارا علمية مكتوبة ، اللهم إلا أقواله وحكمه التي استقرت في قلوب تلاميذه ومريديه على مر السنين ، والتي سجلها هؤلاء المريدون والتلاميذ في كتابات عنه . ومن بين هذه الأقوال أقواله في علوم الطريق ، والتي تدل على قدمه الراسخة في ميدان التصوف ، وكذلك حكمه التي يقول عنها بأنها تنطلق على قلوب العارفين بلسان التصديق ، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق ، وفي قلوب الموحدين بلسان التذكير ، وفي قلوب المحبين بلسان الشوق .. » .

* * *

التفتازاني

«سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني» ، المشهور في التاريخ الإسلامي باسم «التفتازاني» مجردا ، نسبة إلى مسقط رأسه «تفتازان» وهي قرية كبيرة من أعمال خراسان قريبة من مدينة «نسا» موطن عدد من العلماء والفقهاء .. هذا العالم الجليل المشهور في البلاغة والمنطق والميتافيزيقا أي : ما وراء الطبيعة ، وعلوم الكلام والفقه والنحو والأصول والتفسير وفقه اللغة .. وغيرها . يعتبر التفتازاني من مجددي القرن الثامن الهجري حيث ولد عام 722هـ وتوفي عام 792هـ .

أخذ العلم على العالم الحجة : «عضد الدين الإبجى» ثم قطب الدين : «الرازي» وبعد أن تحقق له قدر عظيم من العلم ، بدأ في ممارسة الوعظ والفتوى والتأليف ، حيث تزودنا دائرة المعارف الإسلامية بثبت كامل عن مؤلفاته وتواريخ وأماكن تأليفها، حيث كان هذا المجدد دائم الترحال . وكان أول هذه المؤلفات هي: (المطول) و(المختصر) و(المعاني) و(التلويح) وغيرها من الكتب كما سيأتي في آثاره المتنوعة .

وقد عرف «عبد الرحمن بن خلدون» فضل التفتازاني عندما اطلع على مؤلفاته المطبوعة بمصر ، فذكره في مقدمته ذكرا طيبا ، كما أثنى عليه المستشرق الفرنسي : «دي سلان» .

والآن .. هل نحن في حاجة إلى المزيد من المعرفة عن هذا المجدد ، وجوانب من فكره المتنوع ؟ فلنرجع إلى هذه الجوانب ، **وأولها** : تدور [حول النحو] وفي مقدمتها كتابا : (شرح التصريف العربي) الذي تحدث عنه «بروكلمان» في تاريخه حديثا طيبا إلى جانب القيام بترجمته في أكثر من لغة ، كما يذكر المستشرق «ناليتو» ، والكتاب

الثاني في النحو بعنوان (إرشاد الهادي) وله مخطوطة في فيينا ، ويذكر «حاجي خليفة» عدة شروح لهذا الكتاب منها : شرح محمد بن علي الجرجاني ، وشرح شمس الدين محمد بن محمد البخاري ، ومخطوطته الأصلية محفوظة في الإسكوريال بإسبانيا .

والجانب الثاني من آثار التفتازاني ويدور [حول البلاغة] ، ويتصل من قريب أو من بعيد بالبيان المعول عليه لهذا الفن الوارد في القسم الثالث من كتاب (مفاتيح العلوم) للسكاكي ، واثنان منهما شرحان على كتاب : (تلخيص المفتاح) «للقزويني» المعروف بخطيب دمشق . وعلى هذا .. فكتب التفتازاني في البلاغة ينقد منها ثلاثة كتب : (المطول) و(مختصر المعاني) و(شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم) .

والجانب الثالث يدور [حول المنطق] ، وأهم كتبه : كتاب (شرح الرسالة الشمسية) وهو شرح لرسالة الكاتبي في المنطق كما يذكر المستشرق الألماني «بروكلمان» وتبعه في ذلك العرب ، والكتاب الثاني : (تهذيب المنطق والكلام) والثالث كتاب : (شرح العقائد النسفية) وهو شرح لكتاب عمر بن محمد النسفي في عقيدة المسلمين .

والجانب الرابع من تفكير التفتازاني ، يدور [حول ما وراء الطبيعة] . ومن أهم كتبه : كتاب (المقاصد) وهو موجز في : ما وراء الطبيعة والكلام أتمه المؤلف وشرحه في سمرقند ، وكتاب : (في الرد على ابن عربي) وبالتحديد : الرد على كتاب : (نصوص الحكم) «لابن عربي» . وهذا الكتاب الخاص بالرد ، مخطوطته موجودة في برلين .

والجانب الخامس يدور [حول الأصول] ، ومن أهم كتبه : (التلويح إلى كشف حقائق التنقيح] وهو شرح كتاب : (تنقيح الأصول) لصدر الشريعة الصغير : «عبيد الله بن مسعود المحبوبي» ، وكتاب : (شرح المختصر في الأصول) وهو شرح على كتابي كل من : الإيجي ، وابن الحاجب .

والجانب السادس ، ويدور [حول الفقه] بوجه عام ، ومن أهم كتبه : (المفتاح) في فروع الفقه الشافعي ، إلى جانب ذلك مجموعة من الفتاوى في فروع الفقه الحنفي، وكتاب (اختصار شرح الجامع الكبير) وهو تلخيص موجز مع الشرح لكتاب: (الجامع الكبير) للإمام الشافعي، ومخطوطة هذين الكتابين موجودة في برلين والهند .

والجانب السابع ، وتدور مادته [حول التفسير] ، ومن أهم كتبه : (كشف الأسرار وعدة الأبرار) وهو تفسير للقرآن الكريم باللغة الفارسية ، (شرح على الكشاف) وهو تعليقات على شرح «الزمخشري» وتشمل هذه التعليقات من سورة البقرة إلى سورة هود ، ومن سورة الزمر إلى سورة الطلاق من القرآن الكريم .

والجانب الثامن والأخير من أعمال التفتازاني هو : [حول اللغة] ، ومن أهم كتبه : (النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ) وهو شرح على ذخيرة الزمخشري الموسومة بالكلم النوابغ ، وكتاب : (ترجمة نثرية) باللغة التركية لديوان «سعدي الشيرازي» المعروف بالبستان .

هذه الجوانب من تفكير الإمام التفتازاني تعتبر المصادر الأولى لكل ما كتبه العلماء والفقهاء ، أو المصادر العمدة للثقافة العربية الإسلامية . والمدهش أن أغلب مخطوطاتها محفوظة في المكتبات العالمية في ألمانيا وإسبانيا وفرنسا ، وأنها تجد عناية خاصة من المستشرقين خاصة «بروكلمان» حيث يعتبرها الأساس للعلم الذي اشتملت عليه . هذا بالطبع إلى جانب الاهتمام بها في ثقافتنا العربية ، سواء بالتأثير بها أو بالتعليق عليها . يستوي في ذلك ما قدمه العلماء والفقهاء والأدباء : «قدماء ومحدثين» ولذلك .. يعد التفتازاني من مجددي القرن الثامن الهجري .

* * *

البلقيني

أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير البلقيني ، عالم وفقيه . اختلف المؤرخون والعلماء في أمر تجديده في الإسلام ، وتساءلوا : هل هو بالفعل أحد المجددين في القرن الثامن الهجري ، أم أنه غير ذلك ؟

فكما سبق أن ذكرنا أن للتجديد في الإسلام شروطا ومواصفات اصطلح عليها علماء الدين وفقهاؤه ، في مقدمتها ألا يقصد بالتجديد فرقة دون فرقة ، أو مذهبا دون آخر .. بل يهدف القائل بالتجديد إلى خير المسلمين ، كما يقصد أن ينهض بهم جميعا ، ليجمع بينهم على غاية من التجديد ، ويجعل كلمتهم واحدة فيما يقصده من النهوض بهم ، ولا يصح أن يكون لمذهب المجدد في الدين أثر في غايته من التجديد ، ولا فيما يرمي إليه من النهوض بالمسلمين .

ولذلك .. رأى العلماء والفقهاء أن من تصير غايته هي التجديد بهذه المعاني جميعها لا يضره بعد هذا أن يكون سنيا ، أو شيعيا ، أو غير ذلك من فرق المسلمين . لأنه في دعوته إلى التجديد . إن كان جادا وصادقا ينسى مذهبه الديني ولا ينظر إلا إلى أنه مسلم لا غير .

ولذلك .. فإن الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» يناقش مسألة أحقية البلقيني بلقب المجدد فيقول : «ولا يذكر من ذهب إلى أن البلقيني كان مجدد القرن الثامن إلا أنه بلغ رتبة الاجتهاد ، وكان له ترجيحات في مذهب الشافعي خلاف ما رجحه النووي ، واختيارات خارجة عن هذا المذهب ، ومن هذا أنه : أفتى بجواز إخراج الفلوس في الزكاة ، وقال إنه خارج عن المذهب الشافعي وقد قيل : إن ثلاثة من العلماء : العراقي ، والبلقيني ، وابن الملقني كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس

القرن الثامن الهجري : العراقي في معرفة الحديث وفنونه ، والبلقيني في ا لتوسع في معرفة مذهب الشافعي ، وابن الملقني في كثرة التصانيف ».

ويستطرد الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مناقشة هذا الأمر حتى يقول : «والحقيقة أن مثل البلقيني لا يصح أن يكون مجددا ، لأن أمره لا يتجاوز التوسع في معرفة مذهب الشافعي ، وإذا كان له فيه ترجيحات تخالف ترجيحات النووي فإنها لا تقربه من ذلك ، كما لم تقرب النووي من رتبة التجديد في ترجيحاته ؛ لأن كلا منهما كان يرجح في دائرة تقليده لمذهب الشافعي فلا تبلغ به أن يكون مجتهدا أو مجددا . ويؤكد الشيخ عبد المتعال الصعيدي على رأيه هذا قائلا : «كذلك ، إن اختيارات البلقيني الخارجة عن المذهب الشافعي لا تبلغ به أن يكون مجتهدا أو مجددا؛ لأنها كانت مثل فتاويه بجواز إخراج الفلوس في الزكاة ، وإزالة المنكرات ، وإبطال المكوس والحانات».

ولكن على الرغم من أن الشيخ عبد المتعال الصعيدي رأى ذلك ، فإنه هو نفسه يعتبر البلقيني أحد مجددي القرن الثامن الهجري في كتابه «المجددون في الإسلام» ، ولعل الشيخ الصعيدي - وهو من كبار علماء الأزهر - قد اعتبره من المجددين في الإسلام - برغم ما يرى - تأثرا بما ذكره السيوطي بكتابه «حسن المحاضرة» حيث يقول- أي السيوطي- عن البلقيني: «سمعت ولده - أي ولد البلقيني . يقول : ذكر الشيخ «كمال الدين الدميري» أن بعض الأولياء قال له : إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها بدئت بعمر وختمت بعمر . يعني عمر ابن عبد العزيز ، وعمر البلقيني ».

ويقول السيوطي أيضا : «ومن اللطائف : أن شطر المبعوثين على رءوس القرون الماضية مصريون : عمر بن عبد العزيز في الأولى ، والشافعي في الثانية ، وابن دقيق العيد في السابعة ، والبلقيني في الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة عام التاسعة من أهل مصر ».

وها هو البلقيني من قرية بلقينة التابعة لمحافظة الغربية بمصر ، وهنا تصدق نبوءة السيوطي في أن يكون عمر البلقيني على رأس المائة الثامنة .

وعلى أي حال .. يمكن اعتبار البلقيني من مجددي القرن الثامن الهجري اتفاقا مع ما جاء في كتاب «المجددون في الإسلام» للشيخ عبد المتعال الصعيدي أو كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطي وغيرهما من كتب للعلماء والمؤرخين . يبقى التعرف على البلقيني نفسه ، حيث تطالعنا لوحة حياته فتذكر أن عمر سراج الدين البلقيني هو عمر بن رسلان بن نصير البلقيني .

ولد بقرية بلقينة عام 724 هـ التابعة لمحافظة الغربية الآن ، وحفظ القرآن وصلى به وهو لم يزل طفلا في السابعة من عمره ، وأتبع ذلك بحفظ الكثير من المتون الخاصة بالنحو والفقه والتفسير .

جاء به أبوه إلى القاهرة وهو في الثانية عشرة من عمره ، وجعله يعرض ما يحفظه من القرآن والحديث ، وما يعرفه من الفقه والنحو والتفسير على جماعة من علمائها ، فبهرهم بذكائه ، وكثرة محفوظه ، وسرعة فهمه ، إلى درجة أن هؤلاء العلماء طلبوا من والده أن يظل ابنه في القاهرة حيث العلماء والفقهاء حتى ينمي استعداده للعلم.

واستقرت أسرة البلقيني في القاهرة ، وأخذ ابنها عمر ينهل العلم من علمائها ، فتلقى الفقه على يد الشيخ السبكي، والنحو على ابن حيان، والحديث على ابن القماح. وظل على هذه الحال حتى إذا نال قدرا من العلوم والمعارف اشتغل بالتدريس ، وفيه برع في الفقه والحديث والأصول وما إليها من العلوم الدينية والعربية ، وكان فيها جميعا من قوة الحافظة وشدة الذكاء ما لم تشاهده حلقات التدريس من قبل . حتى اشتهر اسمه ، وذاع صيته ، حيث اجتمع في دروسه فقهاء المذاهب الأربعة برغم أنه كان أحفظ الناس لمذهب الإمام الشافعي ، وكان يتكلم في الحديث الواحد من أول

النهار إلى ما بعد الظهر ، وأحيانا يصلي بالحاضرين العصر ، والبلقيني لم يفرغ بعد من حديثه .

وكان من العلم والفضل بحيث اختير لقضاء الشام خلفا للسبكي ، وباشر هذا العمل ما يقرب من السنة ، وفيها أنصفه بعض العلماء كابن كثير الذي قال عنه : «أذكرتنا بسمت ابن تيمية» . وكافي شيخ الجبل الذي قال له : « ما رأيت بعد ابن تيمية أحفظ منك للحديث».

ثم عاد البلقيني إلى مصر ليتولى فيها منصب قاضي قضاتها ، وليظل بعد ذلك في هذا المنصب سنوات ، حتى حين يتركه يظل متقدما على قضاة مصر ، لأن كثيرا منهم إما كان من تلاميذه المباشرين ، وإما من التلاميذ غير المباشرين الذين أخذوا العلم عن طريق المباشرين .

وإلى جانب علمه وفضله الذي شهد له بهما علماء مصر والشام اشتهر بين الناس بالإيمان والتقوى ، فكان نموذجا وحده لرجل العلم والدين . واستمر على هذه الحال : يعظ ، ويفتي ، ويجتهد ، ويجدد ، ومن قبل يعلم ويثقف ، حتى كانت وفاته عام 805 هـ ليضمه تراب مصر التي أنجبته .

* * *

ابن خلدون

ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ؛ اعتبره العلماء في مقدمة مجددي القرن الثامن الهجري ؛ لما أوجده من تجديد في مجالات عدة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ، وهو ما اعترف به الأجانب قبل العرب ؛ حيث قال «كارادوفو» في مؤلفه : (مفكرو الإسلام) عنه : «أنجبت إفريقية الإسلامية عالما اجتماعيا من الطبقة الأولى ، هو شخص ابن خلدون الذي لم يعرف من قبله عالم أوتي تصورا عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فإن أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأطوار ونوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلصها ، كل ذلك كان من الأبحاث التى خاض فيها في مقدمته، ولم نجد في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر أناسا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ . وكان ابن خلدون في العقل والإدراك الأوروبي أستاذا «لمونتسكيو» وهو دون شك : الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين».

بهذه الروح تحدث مستشرقو أوروبا عن مؤرخنا وعالم الاجتماع والاقتصاد الذي ظل مخطوطه المسمى بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، ومقدمته حبيس المخطوطات بالنسبة لنا كعرب ومسلمين إلى أن حل القرن التاسع عشر الميلادي فطبعت مقدمته في المطبعة الأميرية ببولاق ، وأعقبها بعد ذلك بعشر سنوات طبع تاريخه كله في سبعة مجلدات ، على الرغم من أن المطبعة الأوروبية كانت قد أخرجت هذه المقدمة قبل ذلك بسنوات، كما نشر «نويل دوفرجيز» قبل ذلك ما أورده ابن خلدون. من أخبار بني الأغلب منها على إفريقية وصقلية ، وبقية أخبار صقلية إلى وقت استيلاء الإفرنج عليها، وأرفق بما نشره ترجمة بالفرنسية، ثم طبع «البارون

دي سلان» الجزأين : السادس والسابع بعنوان : (المغرب في تاريخ الدولة الإسلامية) ، حيث تناول فيها ابن خلدون تاريخ البربر .

هذا هو الاهتمام بعالم الاجتماع وفلسفة التاريخ : عبد الرحمن بن خلدون كما أورده العلماء الأجانب الذي ولد عام 734 هجرية ، وانتقل إلى أقطار العالم الإسلامي ، وفيها : مصر والسعودية والمغرب والأندلس .

ونسارع الخطى ، فنحن على موعد مع بقية تاريخ العلامة العربي عبد الرحمن بن خلدون ، الذي ولد بتونس في مايو عام 1332م ، وتوفي بالقاهرة في السادس عشر من مارس عام 1406م حتى نتعرف على ملامح وقسمات جديدة من هذا الدور الخالد في فروع ثلاثة هي : الاقتصاد والتاريخ والاجتماع .

- ففي الاقتصاد استبق ابن خلدون ولو بصورة خام أو حنينية الأفكار والنظريات الحديثة .. التي قدمها علماء الاقتصاد الحديث وفي مقدمتهم : «آدم سميث» ، و«ريكاردو» ، و«مالتس» ... وغيرهم من رواد الاقتصاد الحر والموجه .

إن أول ما يستوقفنا في مقدمته الشهيرة نظريته في العمل والقيمة التي يوضحها. فيقول: «إن قيمة العمل تقاس بكميته». وهو نفس ما قرره- بعد ذلك بخمسة قرون - «ماركس» وظن أتباعه أن مفكرهم جاء بجديد في علم الاقتصاد !

ويرتفع ابن خلدون في تمجيد قيمة العمل إلى حد يجعله وحده مصدرا لكل قيمة وإنتاج ، فيقول : «لابد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول» ، ثم يتوج بحثه في هذا الميدان بعبارة هي : «إن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية ..» . ويلاحظ هنا تحفظه حين قال «أو أكثرها» حيث تبدو دقته واضحة جلية . على عكس ماركس الذي اندفع - في كتابه (رأس المال)- ورد كل قيمة إلى العمل ، ولم يراع الفوارق والأحوال الاستثنائية .

وكذلك حدثنا ابن خلدون في «مقدمته» عن الأسعار حديث الخبير في فصل عنوانه : «أسعار المدن» ، مبينا لماذا ترتفع الأسعار ولماذا تنخفض .. وهو ما استفاد منه- ولاشك- علماء الاقتصاد الحديث، وفي مقدمتهم «آدم سميث» و«ريكاردو».

- وإذا كانت هذه هي بعض من إسهامات ابن خلدون في مجال الاقتصاد الحديث . فإن إسهاماته في مجال التاريخ أكبر وأضخم وأشمل. ويكفي أن نقول بإيجاز : إن علما جديدا استحدثه هو : فلسفة التاريخ . وقال عنه في ثقة واعتزاز : «إنه فرع فلسفي جديد ، لم يخطر على قلب أرسطو».

ويعرض لنا خطوات منهج هذا العلم الجديد ، وفيه يرى أن المؤرخ الصحيح : «محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبيت ..» إلى أن يقول : «فالحديث التاريخي- إذا- ليس بسيطا ، بل هو ظاهرة معقدة متعددة الوجوه والجوانب يحتاج تفسيرها إلى الكثير من الحذر ... ».

وبذلك .. يبني ابن خلدون نظرية جديدة لم يسبقه فيها أحد في التاريخ . ويتأثر به بعد ثلاثة قرون العلامة الإيطالي «فيكو» في كتابه (العلم الحديث) و«ويشايع» و«فيكو» «في بحوثه ليسينج» و«هردر» و«كانط» بألمانيا و«فولتير» و«كوندرسيه» «بفرنسا» و «هربرت سبنسر» بإنجلترا ، وهؤلاء جميعا تتلمذوا على فكر ابن خلدون.

- يبقى بعد ذلك دور ابن خلدون في بناء علم الاجتماع .. ودوره هنا هو دور المؤسس والمنشئ لهذا الفرع ، وقد تحدث عن هذا الدور العظيم علماء عرب وأجانب ، في مقدمتهم : الدكتور «على عبد الواحد وافي» . والدكتور «عبد العزيز عزت» حديثا لا يترك مجالا لتفصيل آخر . اللهم إلا التأكيد على أنه المنشئ، والمؤسس لهذا العلم ، وأن «فيكو» الإيطالي و«كتليه» البلجيكي و«أوجست» و«كونط» و«إميل دور كايم» الفرنسيين كانوا جميعهم تلاميذ على فكر ابن خلدون.

هل نحن في حاجة إلى تفصيل تسمح به هذه الصفحات بعد هذه الإشارات السريعة إلى دور ابن خلدون في بناء الحضارة الإنسانية ؟ .

ربما .

لعلنا نرجع إليه ... إلى ابن خلدون نفسه . حين قرر أن يضع كتابا في التاريخ يأخذ فيه بمنهج علمي جديد ، حيث يقول : «فأنشأت في التاريخ كتابا ، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا ، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا ، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران علما وأسبابا .. وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني في العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكون وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل هذه الدول من أبوابها ...» ، ثم يبدأ بعد ذلك يطالعنا بمزايا كتابه فيقول : «ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل ، وما يعرض في العمران من دولة وملة ، ومدينة وحلة ، وعزة وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر ، وواقع ومنتظر، إلا واستوعبت جمله ، وأوضحت براهينه وعالمه . فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة ، والحكم المحجوبة القريبة ».

ويشير الدكتور «راشد البراوي» إلى أن هذا الكتاب ينقسم إلى الأقسام الثلاثة فنطالعه ، فنجده يتضمن :

1- «**المقدمة**» في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلمام بمغالطات المؤرخين، «**الكتاب الأول**» في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ، وما إلى ذلك من العلل والأسباب . وكلا الاثنين يعرفان الآن باسم «مقدمة ابن خلدون» التي ترجع إليها شهرته كواضع فلسفة في تفسير التاريخ ، أو كواضع قوانين حركة التاريخ أو المجتمع الإنساني .

2- «**والكتاب الثاني**» في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى عهده، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل: النبط والسريان والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة. وهذه الأخبار التى يشير إليها لا تشغل إلا جزءا يسيرا من الكتاب الثاني في حدود ربعه. أما الثلاثة الأرباع الباقية فتناول فيها «الدول الإسلامية والدول التي اتصلت بها في عصور الإسلام. فتكلم عن ظهور الإسلام وحياة الرسول- ﷺ-، وعصر الخلفاء الراشدين، وعصر بني أمية، وعصر بني العباس، وتاريخ الفاطميين، والقرامطة، وتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى مبدأ دولة بني الأحمر في غرناطة، ودولة الإسلام في صقلية، وتاريخ الممالك النصرانية في إسبانيا، وتاريخ بني بويه، وبني سكتكين، والترك والسلاجقة والحروب الصليبية ودول المماليك في مصر، كما يرى الدكتور «على عبد الواحد» أن هدف ابن خلدون في مبدأ الأمر كاد أن يقتصر على المغرب، ثم عدل عن هدفه بعد ذلك، وفي هذا يقول أي: الدكتور وافي: «ولم يك في عزم ابن خلدون حينما بدأ كتابة مؤلفه أن يؤرخ للأمم الإسلامية في المشرق ولا يؤرخ للأمم التي اتصلت بها.. ولكنه آثر فيما بعد أن يكون تاريخه عاما شاملا لهذه الأمم».

3- «**الكتاب الثالث**» في أخبار البربر، وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب، خاصة من الملك والدول.

أما عن العنوان الذي اختاره لمؤلفه، فالسبب فيه حسب قوله: «ولما كان مشتملا على أخبار العرب والبربر، من أهل المدن والوبر، والإلمام بمن عاصر من الدول الكبرى، وأفصح بالذكر والصبر، في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر، سميته: (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)».

أما عن المصادر التى اعتمد عليها ابن خلدون فنقول : إنه بالنسبة إلى القسم الخاص بالأمم والدول قبل ظهور الإسلام ، اعتمد على ما كتبه المسلمون من أمثال : الطبري والمسعودي ومحمد وابن إسحاق وابن عساكر وابن سعيد ، وعلى ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء والرسل الأقدمين ، أو ما ينقله زعماء المفسرين من تفسير ومن أخبار من ذكر دولهم وحروبهم ، ناقلين ذلك عن السلف من التابعين . ومن مصادره أيضا التوراة والإسرائيليات ، نجده أيضا ينقل روايات وأخبارا عن «هروشيوس» مؤرخ الروم حسب تعبيره ، والمقصود به : هيرودوت ، غير أنه ينبغى أن نلاحظ هنا أنه – على حد قوله في الكتاب الثاني – لا يعول على أساطير القصص وكتب بدء الخليفة ، كما يبدي تشككا في بعض ما أورده المؤرخون الآخرون من أنباء وأحداث تلك العصور .

أما عن القسم الخاص بظهور الإسلام والدول الإسلامية بالمشرق ، فاعتمد على المصادر العربية مثل : الطبري والمسعودي وابن إسحاق وابن سعيد والواقدي.. وغيرهم، وإن حاول مناقشة بعض رواياتهم وتصحيح بعض ما وقعوا فيه من الأخطاء . وكان يختار بالنسبة إلى فترة معينة المصدر الذي يراه أجدر من غيره بالاطمئنان إليه ، ولهذا يحدثنا مثلا في نهاية الحديث عن الفترة الممتدة من النبوة حتى انتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، أنه اعتمد على ما كتبه ابن جرير الطبري .

وإذا انتقلنا إلى القسم الذي تناول فيه بلاد المغرب وتاريخ المسلمين في إسبانيا والممالك المسيحية فيها ، وحكم المسلمين في صقلية ، فإنه يرجع إلى مصادر اطلع عليها بنفسه ولم تكن متاحة لمن سبقه من المؤرخين ، وبعضها لم يصل إلينا ، كذلك استمد بعض المعلومات من مشاهداته ومن روايات وصلت إليه عن طريق السماع من روايتها أو كانت متداولة في أيامه .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية : أما مؤلفه في « تاريخ البربر » فيعد مصدرا عظيم القيمة عن كل ما يتعلق بحياة القبائل العربية والبربرية .

وتاريخ هذه البلاد في العصور الوسطى، هو ثمرة خمسين عاما (النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي) قضاها المؤلف في مشاهدة الحوادث عن كثب ، وفي دراسة كتب التاريخ ووثائق عصره السياسية والرسمية دراسة واسعة .

وألحق ابن خلدون بمؤلفه في التاريخ . سيرة لحياته ، جعل عنوانها : « كتاب التعريف بابن خلدون» . في هذا التعريف يروي ابن خلدون تطورات حياته ، والتجارب التى مرت به ، وهو في حديثه عن نفسه يصف لنا أحوال المجتمعات والنظم التي اتصل بها والأحداث المهمة التي أثرت في مجرى حياته ، ويزودنا بسير معظم الأشخاص الذين ذكرهم ، ويمدنا ببيانات عنهم هي وليدة المعرفة الشخصية والاتصال . كذلك يتضمن «التعريف» مجموعة من التقارير الرسمية التي كان يتبادلها الملوك والسلاطين . ولما كان ابن خلدون قد ولي القضاء في مصر ، لهذا .. فإن حديثه عن تلك التجربة يصور ما كان يسود القضاء آنذاك من تخلف وجمود وفساد .

ويلاحظ أن ابن خلدون – وهو يروي قصة حياته – يذكر علاقاته بمختلف الأمراء والحكام ، ومغامراته ومؤامراته .. وإن حاول تفسيرها وتبرير مواقفه في كل حالة . إن «التعريف» صورة قلمية للعصر الذي عاش فيه كاتبه ابن خلدون ، وهي صورة تنبض بالحياة والدينامية .

وبعد ... فهذه مجرد إشارة إلى فخر الحضارة العربية الإسلامية العلامة : عبد الرحمن بن خلدون ... الذي صنع مع غيره ممن رأينا في فصول سابقة مكونات هذه الحضارة التي انتفعت بها البشرية كلها .

* * *